

الوصف الجميل

للحفاظة على العتبات الإسلامية

تأليف

د. ستاذة الجليل السيد حسين افندي الجسر الطرابلسي

عنى بمقابلة أصوله، وتصحيحه

رضوانه محمد رضوانه

من نوى العلم بالأزهر

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

بمن المكتبة الجارية للنسك بـ 'أول شارع' تجد على نمصر
لصاحبها : د. طه محمد

طبعة نيرة بغير

بالخرقش رقم ٣٥

لِلْحَافِظَةِ عَلَى الْعَتَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تَأْلِيفُ

الدُّسْتَاذِ الْجَلِيلِ السَّيِّدِ هَبِيبِ افَنْدَرِي الْجِسْرِ الطَّرَابِلَسِيِّ

عَنِ بِمُقَابَلَةِ أَصُولِهِ ، وَتَصْحِيحِهِ



۱۳۵۱ هـ - ۱۹۳۲ م

يُطْلَبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْجَارِيَةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِمِصْرَ
لِصَاحِبِهَا : مِصْطَفَى مُحَمَّدٍ

مكتبة الامانة بغير

بالخرنقش رقم ۲۵

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد : أشرف
المرسلين ، وعلى آله ، وصحبه ، أجمعين
«أما بعد» فيقول الفقير الحقير الراجي من الله غفران الوزر عبده
حسين بن محمد الجسر الطرابلسي « عفا الله عنه » : انه من المعلوم
المسلم عند كل مطلع على تاريخ الأمة المحمدية أن ايمان أهل الاسلام ،
بجميع ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان في عصره « عصر
السعادة » مستنداً للقرآن الشريف ، وحديث الرسول المنيف ، مؤيداً
بأدلة العقل السليم ، الناهج في المنهج القويم ، خالصاً من شوائب الشبه
والاهواء ، سليماً من غوائل الاغاليط واختلاف الآراء ، فإذ
كانت ثمراته يانعة ، وزواهره ساطعة ، فكنت ترى أفراد الأمة
محافظين على اقامة العبادات ، وانتظام شأن المصالح ، ممتثلين للأوامر .
منتهم عن المناكر . متحايين بأخلاق الدين الحسنة ، وآداب المستحسنه ،
لأنه : متى طاب الأصل طابت الفروع ، وعدوبة الماء ، من
صفاء ينبوع

وقد دام ذلك في المسلمين ، وجماعة الموحدين ، الى ان أمر أحد
تخلف - ربه سيان بترجته كتب انعامه المزمير من الامة الفريده .

وانتشرت تلك التراجم بين الأمة الإسلامية ، ونشأ من الاطلاع عليها شبه : زعزعت ايمان ضعفاء المسلمين ، ومن ليس عندهم تمكن في معرفة أصول دين سيد المرسلين ، فانبرى عند ذلك علماء الأمة المحمدية وأئمتها الاعلام ، المتمسكون بما كان عليه المصطفى وأصحابه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام : يردون القلوب الشوارد ، ويدفعون تلك الشبه بما يرغم أنف كل معاند ، حتى رأيت كتبهم مزدانة بالدلائل القطعية ، على إثبات العقائد الدينية ، وصاعدة بردود الشبه التي كانت على الضعفاء أعظم بلية ، فحفظ الله تعالى بصيغهم ايمان الأمة من الغوائل ، وحصنه من صدمات الشبه بأقوى الدلائل وقد استمر الحال على هذا المنوال ، الى أن ظهرت في هذه العصور الأخيرة الفلسفة الحديثة ، التي خالف فيها أربابها طريقة أسلافهم الفلاسفة المتقدمين ، واعتمدوا في ذلك أصولا في الرياضيات والطبيعات لم تكن تعرف قبل هذا الحين ، وانتشرت هذه الفلسفة بواسطة المطبوعات بين أهل الاسلام ، ونشأت عنها شبه لم تكن معهودة في غابر الاعوام ، وصار كل عاقل يخشى على إيمان الضعفاء من غوائل هذه شبه الجديدة ، فتجدد الاحتياج الى اسشاف الردود السديدة ، وتأليف كتب في حفظ الايمان مفيدة

ولما من الله تعالى على أهل هذا العصر بخليعة رفعت لجلالتهم ، ألوية الشرف والفخر ، ونشرت لحضرة ربات العز والنصر ، وسما

في اصلاح الرعية سيرا عجيبا ، وسلك في نجاح البرايا سلوكا غريبا ،
 وقام على أقدام الاقدام ، ونشر منشور فضله على عموم الانام ،
~~موصوف~~ ~~سأوقته~~ لنفع الخاص والعام ، وبسط ~~بسط~~ ~~المصالح~~ ~~لجميع~~ لكافة
 تبعته ، وأفاض فيوض المكارم على جميع صنوف رعيته ، ألا وهو ثاني
 القمرين ، ومحبي سنة سيد الكونين ، ناصر الشريعة الغراء ، ورافع
 لواء المحجة البيضاء ، سلطان سلاطين العرب والعجم ، ومعيد ما اندرس
 من آثار سالف الامم ، الخليفة الاعظم ، والخاقان الانجم ، السلطان
 ابن السلطان السلطان الغازي «عبد الحميد» خان ابن السلطان الغازي
 عبد الحميد خان نصره الله تعالى وأدامه ، ورفع على ذروة الخافقين
 بالفتح المبين أعلامه ، وجه عنايته - حفظه الله تعالى - الى أحوال العلوم
 والمعارف ، وألفت الطرف الى شؤون الفضائل والعارف ، فرآها
 بلسان الحال تشكو لجلالته ، وتطلب إحياءها بلمحة من أنظار دولته ،
 فرثي لحالها ، وأصغى لمقالها ، وسمع دعواها ، ولبي شكواها ، فشىد
 لها المكاتب والمدارس ، وأحضر لها من الكتب والرسائل أنفس
 النفائس ، وساق اليها المعلمين من أقطار الارض ، وأمر بإحياء دارسها
 واطاعة أمره فرض وأي فرض ؟ فقرى فيها من العلوم والفنون
 ما يسر القلب المحزون ، ولم تزل المعارف تنشر في البلاد . وتتضاعف
 ثمراتها وترداد ، حتى استنقذت شبان الرعية من ظلمات الجهل ،

ونورت أفكارهم بأنوار العرفان والفضل ، وقد عات بذلك همتهم ،
وازدادت بحسن معارفهم قيمتهم .

الا أن ما أحدثته الفلسفة الحديثة التي نقلت الينا على متون
المطبوعات ، من غوائل الشبهات ، قد يخشى منه زيغ عقائد شبان
ضعفاء الامة ووقوعهم في الضلالات ، فكان المطابق لرضائه العالى ،
والموافق لرأى جلالته السامى ، تأليف كتاب مختصر يشتمل على
تقرير العقائد الاسلامية يبراهيمها العقلية ، ويتكفل بدفع تلك الشبه
التي حدثت من الفلسفة الجديدة وسواها من الاغاليط المضرة
بالعقيدة ، مع بيان ما يقضى بجلب قلوب شبان المسلمين لمحبة الدين
المبين ، والتعشق لحضرة سيدنا محمد سيد المرسلين ، صلوات الله
وسلامه عليه ، وعلى آله ، وصحبه ، أجمعين ، عسى أن تعم قراءته فى جميع
المكاتب السلطانية ، والمدارس الشاهانية ، محافظة على عقائد تلامذتها
من أهل الملة الاسلامية ، والشريعة الحمدية ، فوفقت لهذه الخدمة
الشريفة التى ينتج عنها - ان شاء الله تعالى - بانظار خليفة رسول الله الخير
العظيم لعموم الامة الاسلامية ، وتكون حسنة من حسنات شوكرته
- حفظه الله - وغرة من غرر عصره الحميدى السعيد المؤيد بتوفيق
الله تعالى

فجاء كتابا يسر قلوب المؤمنين ، ويقر أعين الموحدين ، مشتملا
على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، كل باب منها يشتمل على فصول : تحتوى

على ماتمس الحاجة اليه من مهمات الاصول ، وعلى خاتمة : تشتمل على بيان وجوب الخلافة في الدين المحمدي المبين ، وما لها من حقوق الاطاعة على عموم المسلمين ، وهو حقيق بأن يسمى « الحصون الحميدية ، للمحافظة على العقائد الاسلامية ^(١) » فتتوسل الى الله تعالى بروحانية حبيبه الاعظم - صلى الله تعالى عليه وسلم - أن يؤيد عرش الخلافة الهظمي بطول عمر وحياة مولانا الخليفة الاعظم ، ويحفظ ذاته الكريمة ، ويؤيده بالنصر المسكين ، والفتح المبين ، اللهم آمين

(١) في الاصول المطبوعة مانصه : لمحافظة العقائد الاسلامية . واللغة العربية نظر لهذا شذرا ولعل نسخة المؤلف وافق . الاختارناه فاحفظه ولا نكن أسير التقليد

المقدمة

وهي تشتمل على أربعة أبحاث

البحث الأول

في تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله ،
واقتراض تعلمه على كل مكلف

إعلم أن علم التوحيد هو : علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية
بالأدلة اليقينية . وثمرته هي : معرفة صفات الله تعالى ، ورسله بالبراهين
القطعية والفوز بالسعادة الأبدية . وهو أصل العلوم الدينية وأفضلها ،
لكونه متعلقا بذات الله تعالى ، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام
وشرف العلوم بشرف المعلوم . وقد جاءت به جميع الرسل عليهم
الصلاة والسلام من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل
الصلاة والتسليم ، ولكن لما كان الشيخ أبو منصور الماتريدي ،
والشيخ أبو الحسن الأشعري : أشهر من دون كتب هذا العلم ، وأقام
الأدلة والبراهين على رد ما قاله المخالفون : شاع أنهما الواضعان له ،
ويقتضى تعلمه على كل مكلف : من ذكر وأنثى — ولو بأدلة
إجمالية . وأما معرفة أدلته التفصيلية فهي فرض كفاية إذا قام بها

بعض الأئمة سقط الطلب عن الباقيين ، والصحيح : أن من قلد غيره في العقائد الدينية بأن يعتقدها اعتقادا جازما لا يقبل الشك والتردد يكون إيمانه صحيحا ، ولكنه يكون آثما بترك النظر في الأدلة ، ان كان قادرا على ذلك والا فلا ، وإنما سمي هذا العلم علم التوحيد لأن أشهر مباحثه البحث عن توحيد الله تعالى ، وهو أساس الدين

البحث الثاني

في بيان حقيقة الإيمان ، وحقيقة الاسلام

إعلم أن الإيمان الذي كلف الله تعالى به عباده ، وجعل جزاءه دخول الجنة ، والنجاة من النار هو : تصديق سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما علم مجيئه به بالضرورة أى اعتقاد صدقه عليه الصلاة والسلام اعتقادا جازما فيما جاء به عن الله تعالى ، وعلم مجيئه به يقينا مع الاذعان القلبي لذلك : وذلك مثل الإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، وافتراض الصلاة ، وبقية العبادات الاسلامية : من الزكاة ، والصيام ، والحج على المستطيع ، وتحريم قتل النفس المعصومة ظلما ، والزنا ، وأمثال ذلك

والاسلام : هو الخضوع والانقياد باطنا وظاهرا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم مجيئه به بالضرورة أى علم مجيئه به يقينا . فكل من الإيمان والاسلام المنجيين : لا ينفات عن الآخر

فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن ، لان المصدق ذلك التصديق للرسول عليه السلام لا بد أن يكون خاضعا لما جاء به عليه السلام ، والخاضع هذا الخضوع لا بد أن يكون مصدقا ذلك التصديق . ثم ان النطق بالشهادتين — وهما : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله — قد جعل شرطا لازما لاجراء الاحكام الدنيوية على المؤمن : من نحو مناكحته ، والصلاة خلفه ، والصلاة عليه ، ودفنه في مقابر المسلمين . فاذا لم ينطق بهما لعذر كالخرس ، أو لم يتمكن من النطق بهما بأن مات عقب ما آمن بقلبه ، أو اتفق له عدم النطق بهما بعد الايمان بقلبه أيضا ، فهو مؤمن عند الله تعالى ، وناج في الآخرة ، لكن من امتنع عن النطق بهما عنادا بعد أن عرض عليه ذلك فهو كافر والعياذ بالله تعالى ، ولا عبرة بتصديقه القلبي الذي يحصل منه ، لأن هذا الامتناع قد جعله الشرع منافيا للايمان ، وحكم بكفر صاحبه

البحث الثالث

في بيان ما اعتبره الشرع منافيا للايمان ، ومبطلا له والعياذ بالله تعالى أعلم أن الشرع السرييف نهى وحذر عن الامور المنافية للايمان ، وحكم بكفر من يرتكبها وان كان مصدقا بقلبه ، ومنقادا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام : وذلك مثل السجود للصنم اختيارا ، أو الاستهانة بما عطمه الدين . كالقرآن السرييف ، وحديث الرسول

المنيف ، والشريعة المطهرة ، ورسول الله الكرام ، وأسمائه العظيمة ، وصفاته الكريمة ، وأوامره ونواهيه ، والفرائض الدينية ، كالصلاة ، والحج ، أو الشتم لواحد مما ذكر ، أو التلفظ بكلمة الكفر ؛ أو نحو ذلك ؛ فإن هذا وأمثاله ينافي الايمان ، ويحكم على مرتكبه بالكفر والخذلان ، وكذلك اذا كذب الانسان شيئاً من النصوص الشرعية الثابت ورودها عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقينا : كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول المتواترة عنه عليه السلام أى التى نقلها الجماعة الكثيرون الذين يؤمن توافقهم على الكذب ، أو استحل حراما ثبتت حرمة فى الشرع قطعا ، وظهرت حكمة قبحه ، كقتل النفس المعصومة ، والزنا ، وأمثال ذلك ؛ فإن ذلك الانسان يكون قد أخل بالتصديق الايماني ، والانقياد الاسلامي ، وآتى بما يبطلهما ، ويحكم عليه شرعا بالكفر ، وعلى كل من كفر - والياذ بالله تعالى - أن يبادر لتجديد ايمانه واسلامه ، ويتوب مما ارتكبه ، وإلا : فيستحق القتل فى الدنيا ، والخلود فى النار فى الآخرة ، نعوذ بالله تعالى وبه نعتصم

البحث الرابع

فى أحكام العقل الثلاثة : وهى الوجوب ، والاستحالة ، والجواز
إعلم أنه لما كان الايمان بالله تعالى - على ما سيأتى - هو :
معرفة ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز فى حقه سبحانه ،

وكذلك الايمان ببقية ما يجب الايمان به : من نحو الرسل ، والملائكة .
لزم أن نبين معنى الوجوب ، والاستحالة ، والجواز العقلية التي انحصرت
بها أحكام العقل ، وليس له حكم سواها : فنقول : —

أما الوجوب العقلي فهو : عدم قبول الانتفاء ، والشيء الذي
لا يقبل الانتفاء يقال له الواجب العقلي . مثاله : كون الواحد نصف
الاثنين ، ووجود خالق العالم ؛ فكون الواحد نصف الاثنين واجب
عقلي ، ووجود خالق العالم واجب عقلي : لا يقبلان الانتفاء والعدم ،
لكن الأول واجب عقلي بديهى لا يحتاج الى دليل ، والثانى واجب
عقلي نظرى يحتاج الى دليل

وأما الاستحالة ، فهي : عدم قبول الثبوت ، والشيء الذي لا
يقبل الثبوت يقال له المستحيل العقلي ، ويسمى محالاً أيضاً . مثاله :
كون الثلاثة نصف العشرة ، ووجود شريك لخالق العالم ؛ فكون
الثلاثة نصف العشرة مستحيل عقلي ، ووجود شريك لخالق العالم
مستحيل ومحال عقلي ، لكن الأول مستحيل عقلي بديهى لا يحتاج
الى دليل والثانى مستحيل عقلي نظرى يحتاج الى دليل

وأما الجواز . فهو : قبول الثبوت والانتفاء ، والشيء الذي يقبل
الثبوت والانتفاء يقال له الجائز العقلي ، مثاله سفر زيد ، أو قلب الحجر
ذهبا بقدرة الله تعالى ، فسفر زيد جائز عقلي ، وقلب الحجر ذهباً بقدرة
الله تعالى جائز عقلي ، لكن الأول جائز عقلي بديهى لا يحتاج الى دليل

ويسمى عاديا أيضا بمعنى أنه يحصل وقوعه في العادة ولا تستغربه العقول ، والثاني جائز عقلي غير بديهي يحتاج ثبوت جوازه الى دليل ويسمى غير عادى ، بمعنى أنه يندر وقوعه في العادة ، أو أنه لم يقع قط ، ولذلك تستغربه العقول في بادى الامر ، ولكن إذا بحث عنه بالدليل وجد أنه جائز الوقوع ، وليس مستحيل الوجود ، ومثله انقلاب العصا ثعبانا ، وانفلاق البحر ، وعدم حرق النار لجسد الانسان ، ونطق الحيوان الاعجم ، وأمثال ذلك ، فان هذه الاشياء وان كان وقوعها غير عادى ، لكن إذا بحث عنها بالدليل وجد أنها جائزة الوقوع ، وداخلة تحت تصرف قدرة موجد العالم سبحانه

وإنا إذا قطعنا النظر عن العادة لم تكن أمثال هذه الاشياء باعرب من خلق الانسان الذى يكون أولا ترابا ، ثم ينقلب نباتا ، ثم غذاء ، ثم دما ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حيوانا ناطقا ، سميعا بصيرا ، ثم يصير عالما محققا ، وحكيما مدققا ، ولولا العادة لكان من أعرب الغرائب عند العقل أن المطر ينزل على الارض الترابية : فينبت به أنواع الاشجار والازهار والاشجار المتنوعة الالوان ، والطعوم ، والروائح ، والخواص ؟ ولولا العادة لكان من أعجب المعجائب أن شرارة صغيرة تخرج من قدح حديدية على حجر فتبتلع مدينة كبيرة بأهلها وجميع ما فيها . وتصيرهم رمادا ، ولولا العادة لكان من أبعد شيء عن التصديق أن قوة غير مرئية تحصل من تفاعل بعض الأجزاء ، فتتحرك الاجسام

العظيمة ، وتجر الاثقال الجسيمة ، وتتناقل بواسطتها أفكار البشر في أقطار الارض الشاسعة ، ولجج البحار الواسعة ، ألا وهي القوة الكهربائية إلى غير ذلك من الكائنات التي ما أزال غرابتها عن العقول إلا تكرر وقوعها بيننا ، ولا فرق بين هذه الاشياء العادية الوقوع وبين تلك الاشياء غير العادية الوقوع إلا حصول المادة في الاولى دون الثانية ، وإلا فاذا نظرنا في الدليل العقلي ، وجدنا أن كلا منهما جائز الوقوع وداخل تحت تصرف قدرة موجد العالم الذي ابتدع هذه الاكوان وأودعها من الاسرار ما تختار فيه الافكار

وليعلم أن تلك المجائزات غير العادية هي التي جعل الله تعالى وقوعها على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام معجزة لهم ، شاهدة بصدقهم فيما يخبرون به عنه تعالى ، كما سيأتي شرح هذا في المباحث الآتية ، إن شاء الله تعالى

الباب الأول

في بيان الايمان بالله تعالى ، وبيان اعتقاد أهل السنة بالنصوص
الشرعية الواردة في صفاته سبحانه ، وفيه ستة فصول

الفصل الأول

في تعريف الايمان بالله تعالى

اعلم أن معنى الايمان بالله تعالى هو : أن يعلم العبد ويعتقد اعتقاداً
جازماً ما يجب لله تعالى من الصفات ، وما يستحيل عليه من أضدادها ،
وما يجوز في حقه سبحانه ، فاعتقد إجمالاً اعتقاداً جازماً أنه يجب لله
تعالى كل صفة كمال تليق بشأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى كل
نقص ، ويجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه ، ولكن يجب على العبد
أن يعتقد تفصيلاً بوجوب ثلاث عشرة صفة كالية لله تعالى : عيها
مدار الألوهية ، وعظمة شان الربوبية ، وبإستحالة أضدادها ما به
سبحانه ، وتلك الصفات الثلاث عشرة : هي الوجود وضده العدم ،
والقدم وضده الحدوث ، والبقاء وضده الفناء ، والخالقه لا لحوادث
وضدها المماثلة لا لحوادث ، وقيامه تعالى بنفسه وضده قيامه تعالى بغيره ،
والوحدانية وضدها أن لا يكون واحداً ، والارادة وضده الكبرهية

والقدرة وضدها العجز، والعلم وضده الجهل، والسمع وضده الصمم، والبصر وضده العمى، والكلام وضده البكم، والحياة وضدها الموت، وكما لهذا الاعتقاد أن يكون بالبراهين المفيدة لليقين، ولنشرح في الفصل الآتي بيان وجوب كل صفة من هذه الصفات الثلاث عشرة، واستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك بعون الله تعالى

الفصل الثاني

في بيان الصفات الثلاث عشرة التي يجب الايمان تفصيلا بوجوبها لله تعالى، وباستحالة أضدادها مع الدليل المفيد لليقين في ذلك

«الصفة الاولى» الوجود: يجب لله تعالى الوجود، ويستحيل عليه ضده وهو العدم، والدليل على ذلك أن هذا العالم المشاهد لنا بجميع ما يحويه حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فهذا العالم لا بد له من محدث. أما الدليل على أن هذا العالم حادث فهو كونه ملازما للاعراض الحادثة: من الحركة والسكون، والصور الحيوانية، أو النباتية، أو المعدنية أو غيرها من الصور التي لا تخلو مدده العالم وجوهه عن واحدة منها، وكل ملازم للحادث يكون حادثا. وبوضيحه: أن هذه الاعراض حادثة بدليل أن كل واحد منها يزول ويخلفه غيره والقديم لا يزول، لأنه إما قديم لذاته، وإما قديم لغيره بمعنى أن شيئا آخر قديما استلزم وجوده، وما دامت ذات القديم قائمة، أو الذي استلزمه قائما فلا يجوز أن يزواله

فاذا ثبت كون هذه الاعراض حادثة نقول : أصل مادة العالم وجوهره إما أنه كان موجودا قديما، وخاليا عن أعراض وهذا باطل؛ لأن الاعراض ملازمة له لا يخلو عنها جميعها ، إذ لا يتصور خلوه عن الحركة والسكون وجميع الصور ، واما أن يقال : حدث وحدثت تلك الاعراض معه ، فثبت حينئذ انه حادث والاعراض أيضا حادثة ، فثبت أن هذا العالم بجميع ما يحويه حادث وهو المطلوب

وأما الدليل على أن كل حادث لا بد له من محدث ؛ فلا أنه لو وجد الحادث بدون محدث يلزم الترجيح بلا مرجح ، وهو من المستحيلات البديهية . وتوضيحه لمن قد يخفى عليه ذلك : أن العقل لا يصدق بأن إحدى كفتي ميزان متساويتين في الثقل بينما كانتا متوازنتين ، أو اليسرى مثلا مائلة وبالغة بميلها إلى الأرض بسبب من الأسباب إذا رجحت اليمنى على اليسرى وارتفعت اليسرى الى غاية ما يمكن من ارتفاعها وأن ذلك حصل بدون مرجح للكفة اليمنى الراجحة ، لا بقوة حيوان ، ولا بمصادمة هواء ، ولا جسم آخر سقط فيها ، ولا بشيء مما يصلح لترجيحها ، ومن يصدق بهذا عد من الحمقا ، ولا فرق بين هذا المثال وبين جميع ما يتصور من الحقائق سواء كانت حسية أو عقلية في أن الترجيح بلا مرجح فيها من المستحيل كما هو ظاهر . فثبت بهذا : أن وجود الحادث بلا محدث مستحيل ، فلا بد لكل حادث من محدث يخرج من ظلمة العدم إلى نور الوجود

فتمت لنا الدعوى وهى : أن هذا العالم الحادث لا بد له من محدث .
ثم إن هذا المحدث لا بد أن يكون موجوداً ، لأن المعدوم لا يصلح
أن يكون موجداً لشيء كما هو ظاهر ، فثبت بجميع ما تقدم وجوب
وجود محدث موجد لهذا العالم واستحالة عدمه وهو المطلوب من
هذا البحث ، وقد سمي العقلاء هذا الموجد للعالم باله العالم ،
ووردت الشرائع بتسميته باسم الجلالة وهو الله تبارك وتعالى

« الصفة الثانية » القدم : يجب لله تعالى القدم ويستحيل عليه
تعالى ضده وهو الحدوث ، والدليل على ذلك أنه سبحانه لو كان حادثاً
لاحتاج الى محدث ومحدثه - مع فرضه حادثاً - يحتاج الى محدث ،
وهكذا ، فيلزم إما الدور وإما التسلسل وكل من الدور والتسلسل
محال . فما أدى الى واحد منهما وهو حدوث الله تعالى يكون محالاً ،
وإذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديماً وهو المطلوب

أما الدور فهو : توقف وجود كل من الشئيين على وجود الآخر ،
فيلزم أن كلا منهما وجد قبل وجود سببه فيلزم أن يوجد قبل وجود
ذاته وهو طاهر البطلان ، فلو قلنا : ان لا له الذى توقف عليه وجود
العالم توقف وجوده على العالم لزم أن العالم قد وجد قبل وجود الاله
الذى كان سبب وجوده ، فيلزم أن يكون وجد العالم قبل وجود ذاته
، هو ظاهر البطلان

وأما التسلسل فهو: ترتب أمور وتعاقبها في جانب الأزل لانهائية لها، وإنما حكم العقل باستحالته ، لأنه يستلزم المحال وما يستلزم المحال يكون محالاً

وقد ذكر العلماء لبيان استحالة التسلسل عدة أدلة نذكر منها هنا مايسهل فهمه ، فنقول : لاشك أن العقل يحكم قطعاً بأن الشيء الذي يكون محصوراً بين حاصرين لا بد أن يكون متناهما واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناه محال ، فلو كان التسلسل جائزاً عقلاً لساغ لنا أن نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساقى شكل مثلث ذاهبين الى غير نهاية ، فاجزأوها بمنزلة أمور مرتبة متعاقبة في جانب الأزل غير متناهية ، ثم لنا أن نفرض المسافات التي بين هذين الخطين ونعتبرها خطوطاً تمتد وتطول كلما امتد الخطان وتباعدا

هكذا  فإذا قلنا بعدم تناهي الخطين يلزم منه عدم تناهي

المسافات بينهما التي اعتبرناها خطوطاً ، فلا بد أن تنتهي الى خط من تلك الخطوط غير متناه ، والحال أنه محصور بين حاصرين . وهم الخطان . وقد تقدم : ان المقدار الذي يكون محصوراً بين حاصرين لا بد أن يكون متناهما ، واجتماع كونه محصوراً بين حاصرين وكونه غير متناه محال ، فما أدى اليه وهو عدم تناهي الخطين الذي فرضنا في التسلسل يكون محالاً . فبعد بيان أن كلا من الدرر والتسلسل محال

يثبت : أن الاله الذي هو موجد العالم لا يجوز أن يكون حادثا عن شيء آخر ، والا يلزم الدور فيما لو قلنا ان وجود الاله متوقف على وجود العالم ، أو التسلسل فيما لو قلنا : ان وجود الاله متوقف على وجود شيء آخر ، والشئ الآخر متوقف على آخر ، وهكذا الى غير نهاية ، وكل من الدور والتسلسل محال — كما تقدم — فما يؤدي الى واحد منهما وهو : كون الاله حادثا متوقفا على غيره يكون محالا ، واذا استحال حدوثه ، وجب أن يكون قديما ، اذ لا واسطة بين الحدوث والقدم ووجوب قدمه سبحانه واستحالة حدوثه هو المطلوب ثم بعد ثبوت قدم الله تعالى واستحالة حدوثه نقول : ان قدمه سبحانه لذاته وليس قدمه لغيره ، بمعنى أن أمر آخر اقتضى وجوده ، لانه لو قيل : بأنه قديم لغيره لانتقل الكلام الى ذلك الغير ويقال : هل هو قديم لذاته أو لغيره ؟ وهكذا الى غير نهاية فيلزم التسلسل وهو محال فلم يبق الا القول : بأنه قديم لذاته أي انه ليس مستندا في قدمه الى سواه

« الصفة الثالثة » البقاء : يجب لله تعالى البقاء ، ويستحيل عليه ضده وهو الفناء والزوال ، والدليل على ذلك أنه قد ثبت وجوب القدم الذاتي لله تعالى ، واستحالة الحدوث عليه سبحانه ، وما دام أنه تعالى قديم لذاته ، وذاته تعالى قائمة ، وقيامها يستلزم وجودها ، فلا يجوز أن يقبل الفناء والزوال . فنبت بهذا ان الله تعالى يجب له البقاء ، ويستحيل

عليه ضده وهو الفناء وهو المطلوب

«الصفة الرابعة» المخالفة للحوادث : يجب لله تعالى المخالفة للحوادث

ويستحيل عليه ضدها ، وهو المماثلة للحوادث ، بان يكون تعالى مشابها
لهذه الموجودات الحادثة في خاصة من خواصها التي من طبيعة نفسها
أن تكون لازمة لها لا تنفك عنها ، أو من طبيعة نفسها أن تقبلها ، سواء
كانت توجد في جميع الأنواع منها أو في بعضها وذلك : كالجوهرية ،
والجسمية ؛ والعرضية ، والتعيز ؛ والتركب ، والتجزى ؛ والتولد
عن الغير ؛ وولادة الغير ؛ والاتصال والانفصال ؛ والحيوانية ؛ والنباتية
والمعدنية ؛ والانتقال من حيز الى حيز ، والانفعالات النفسية :
كالضحك ، والتعجب ؛ وأمثال ذلك ؛ لان الاله — سبحانه — لو شابه
هذه الموجودات الحادثة في شيء من تلك الخواص لسكان مثلها ؛ لأن
الشيء الذي يشابه شيئا آخر في خاصة من خواصه يكون مثله ألبتة ؛
ولو كان الاله مثلها لجاز عليه ما جاز عايتها من الحدوث والفناء ؛ لانه
ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، وقد قام الدليل على وجوب
قدمه تعالى ، وبقائه ؛ واستحالة حدوثه وفنائه ، فقد ثبت بهذا أن
الله تعالى لا يجوز عليه أن يشابه هذه الموجدات الحادثة ؛ فوجب له
مخالفتها ، واستحالة عليه المماثلة لها وهو المطلوب

«الصفة الخامسة» قيامه تعالى بنفسه : يجب لله تعالى قيامه

بنفسه ، ويستحيل عليه تعالى منه ، وهو قيامه بنفسه ؛ بمعنى خضوعه

الى مكان يقوم فيه ، أو محل يحل فيه ، أو مخصص يخصصه ، أو موجود يوجد . والدليل على ذلك أنه قد ثبت في دليل المخالفة للاحداث أنه تعالى ليس جوهرًا ولا جسمًا ؛ فلا يحتاج الى مكان يقوم فيه ، لأن الاحتياج الى المكان من خواص الجواهر والأجسام ، وثبت هناك أنه تعالى ليس عرضًا فلا يحتاج الى محل يحل فيه ويتقوم به كما تحتاج الأعراض مثل الألوان والطعوم الى ذلك ؛ وثبت أيضًا أنه تعالى قديم فلا يحتاج الى مخصص يخصصه وموجد يوجد فثبت وجوب قيامه تعالى بنفسه ؛ واستحالة قيامه بغيره وهو المطلوب

« الصفة السادسة » الوجدانية : يجب لله تعالى الوجدانية أى أنه تعالى واحد في ذاته ؛ وفي صفاته ؛ وفي أفعاله ؛ ويستحيل عليه ضدها وهو : أن لا يكون تعالى واحدًا فيما ذكر ، بأن يكون مركبًا في ذاته أو في صفاته ، أو يكون له مماثل في ذاته أو في صفاته . أو له مشارك في خلق فعل من الأفعال

أما الدليل على أنه تعالى ليس مركبًا في ذاته ، ولا في صفاته ؛ فهو : أنه تعالى لو كان مركبًا في واحد منها لاشبه الحوادث في خاصة من خواصها ؛ ومقتضيات ذاتها ، وهو التركيب - كما تقدم في دليل مخالفته تعالى للاحداث - فيكون حادثًا مشابها ؛ وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى واستحالة حدوثه ؛ وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل في ذاته ؛ ولا في صفاته . فلأنه لو وجد له مماثل في ذاته يجب لذلك

المماثل ما يجب له تعالى . ويستحيل عليه ما يستحيل عليه سبحانه .
أو وجد له مماثل في صفاته الواجبة القديمة . لاسيما في تمام القدرة
على كل ممكن — كما سيأتى في إثبات وجوب القدرة التامة له تعالى —
لكان ذلك المماثل في الذات . أو في الصفات الواجبة القديمة إلهاولو كان
معه سبحانه وتعالى في الوجود اله . لما وجد هذا العالم كما أشير إليه
بقوله تعالى « لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا » أى لو كان يقوم
في خلق السموات والارض الهة غير الله تعالى أى وان كان الله تعالى
معهم لفسدنا أى لم توجدا . وشرح هذا الدليل أن يقال . لو تعدد
إله العالم كأن يكون هناك إلهان أو أكثر — اذ لا فرق في هذا الاستدلال ،
لما وجد شيء من هذا العالم ، لكن عدم وجود شيء من هذا العالم
باطل ، لأنه موجود وتابت بالمشاهدة ، فما أدى اليه وهو تعدد ،
الاله يكون باطلا ، وإذا بطل التعدد ثبتت الوحدة وهى المطلوب
وانما يلزم من وجود إلهين عدم وجود شيء من العالم ، لأنهما إما أن
يتفقا على إيجاد هذا العالم ، وإما أن يختلفا ؛ فان اتفقا فلا جاز أن يوجداه .
لأنه إما أن يحصل بإيجاد كل منهما وجود للعالم مستقل ، فيلزم أن له
وجودين وهو أنما له وجود واحد فقط ، وإما أن لا يحصل بإيجادهما
الا وجود واحد للعالم ، فيلزم أن كلا منهما لم يوجد به بانفراده ، بل
بمشاركة الآخر ، فيكون هذان الالهان قد ركبوا وجعلا إلهما واحدا
ينسب اليه الإيجاد ولا ينسب لواحد منهما على الاستقلال . لأنه

جزء الموجد ، لا موجد مستقل ، وإله العالم إنما هو موجد المستقل ،
اذ يلزم له كمال القدرة وغير المستقل يكون عاجزا محتاجا الى معين ،
وأیضا اذا قيل : ان الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا :
قد ثبت ان التركيب محال على الاله لوجوب مخالفته للحوادث
فی صفاتها التي من خواص نفسها ومنها التركيب ، ولا جائز أن يوجد
أحدهما ثم يوجد الآخر ، لان هذا تحصيل حاصل وهو محال كما
هو ظاهر ، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض من هذا العالم ، والآخر
البعض الآخر لازوم عجزها حيث لا بد لانه لما تعلقت قدرة أحدهما ببعض
سد على الآخر طريق تعلق قدرته به ، وهذا عجز يناهى تمام القدرة
على كل شيء ، والمعجز على الاله محال ، كما سيأتى من وجوب تمام قدرته
تعالى على كل جائز ، وان اختلفا ، بأن أراد أحدهما إيجاد هذا العالم ،
والآخر اعدامه فلا جائز أن تنفذ ارادتهما معا ، لئلا يلزم على هذا
اجتماع النقيضين : وهو وجود العالم وعدمه فى آن واحد وهو محال
ولا جائز أن تنفذ ارادة أحدهما دون الآخر للزوم عجز من لم تنفذ
ارادته ، والآخر مثله ، لالتمقاد الممانعة بينهما ، وقد يقال اذا نفذت
رادة أحدهما دون الآخر ، كان الذى نفذت ارادته هو الاله دون
الآخر لعجزه وتم دایل الوحداية

ودایل آخر على استحالة تعدد الاله انه لما وجب وجود إله للعالم
لدایل ان الحوادث لابد منها من محدث ، فاذا وجد إله آخر فاما أن

لا يكون كل منهما كافيا في ايجاد العالم فلا يكون كل منهما إلهًا ، لأن
الإله هو السكافي المستقل ، وإما أن يكون واحد منهما كافيا فالثاني يكون
ضائعا لاحاجة اليه ، والإله لا يكون كذلك

وأما الدليل على أنه تعالى ليس له مشارك في فعل من الأفعال .
فلأن الحوادث في هذا الكون إما هي حدوث حيوان ، أو نبات
أو معدن ، أو حركات غير الحيوانات : كحركات الكواكب ، والرياح
أو حركات الحيوانات غير الاختيارية : كحركة نملها ، وحركة انتعاشها
الحاصلة بسبب الحمى مثلا ؛ فهذه الأشياء من البديهي أنه ليس لسوى
الله تعالى من المخلوقات دخل في ايجادها وحدثها ، ومما يجزم به كل
عقل أنه لم يصوره بصورته التي هو عليها أبوه ، أو أمه ، أو أحد من
الخلق فيقال بعد ذلك : ان الدليل على تفرد الله تعالى بايجاد جميع ما ذكر
هو نظير الدليل على أنه تعالى ليس له مماثل في ذاته ، ولا في صفاته ،
اذ نقول في ايجاد كل منهما : لو كان هناك موجدان . فاما ان يتفقا
في ايجاد كل شيء مما ذكر . وأما أن يختلفا ويتم الدليل الى آخره كما تقدم
قريبا فيثبت أنه ليس خالق لهذه الأشياء الا الله تعالى . وأما أن تلك
الحوادث حركات العباد الاختيارية : من نحو قيام زيد : ومشى عمرو
ونحو ذلك . فهذه أيضا إنما المتفرد بخلقها وايجادها هو الله تعالى . والدليل
على ذلك أنه لو كان العبد هو الموجد والخالق لفعله الاختيارى لكان
علما بتفاصيله ، لكان علمه بتفاصيله باطل ، فكونه هو الموجد به

يكون باطلا فلم يبق إلا ان الموجد له هو الله تعالى الذى أوجد بقية الكائنات ولم يشاركه فيها مشارك

والدليل على بطلان علم العبد بتفاصيل فعله : أن النائم تحصل عنه أفعال اختيارية . لا شعور له بتفاصيل مقاديرها وكيفاتها . وإن الكاتب يصور الحروف والكلمات بتحريك أنامله من غير شعور له بما لا تأمل من الأجزاء والأعضاء . أغنى العظام والغضاريف والأعصاب والعضلات والرباطات ولا بتفاصيل حركاتها وأوضاعها التى بها تتأتى تلك الصور والنقوش . ثم انه قد تواترت النصوص الشرعية بان الخالق لأفعال العباد هو الله قال تعالى فى كتابه العزيز « والله خلقكم وما تعملون » وقال تعالى « هل من خالق غير الله »

ويسوغ لأهل الإيمان الاعتماد فى عقائدهم على هذه النصوص الثابتة فى الدين المحمدى المبين . وأخذها دليل عقيدتهم على أن الخالق لأفعال العباد هو الله تعالى . لكن للعبد كسبا فى أفعاله الاختيارية هو مناط الثواب والعقاب . وبه صح نسبة الفعل الى العبد فى قولنا فعله . قال الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه فى « الفقه الأكبر » مانصه : وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله خالقها انتهى . قال مفسر كلامه من الأئمة الكرام : يعنى أن أصل الفعل بقدره الله تعالى والأصناف بكونه طاعة أو معصية بقدره العبد . وببيان آخر أن العبد يرجع إرادته الى الفعل ويعلق قدرته به فيكون

ذلك منه سبباً لاتصافه به كبقية الاسباب في جانب مسبباتها .
وهذا من العبد هو الكسب والله تعالى عند ذلك يوجد بقدرته .
وهذا هو الخلق وهذا هو المذهب المتوسط بين الافراط والتفريط .
فلا نقول بانه : لادخل للعبد في جميع أفعاله ، ولانقول : بانه لادخل لله
في أفعال العباد الاختيارية بل نقول : ان الله تعالى خالق أفعالهم وهم
يكتسبونها . وعلى كسبهم يثابون أو يعاقبون

« الصفة السابعة » الارادة : يجب لله تعالى الارادة وهي صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز ببعض مايجوز عليه ،
ويستحيل عليه ضدها وهو الكراهية ، والدليل على ذلك انه قد ثبت
أن هذا العالم لم يحدث بذاته . وانما حدث عن الله سبحانه . وحيث
نقول : ان حدوث العالم عنه تعالى اما أن يكون بطريق العلية
والضرورة بدون ارادة واختيار ، وأما أن يكون بطريق الارادة
والاختيار أى أنه هو الذى اراد وجوده واختاره وعين له الوقت
الذى يوجد فيه ، لاجاز أن يكون حدوث العالم عنه تعالى بطريق
العلية والضرورة بدون اختيار ؛ لانه لو كان الامر كذلك - والله
سبحانه قديم : لازم أن يكون العالم قديماً لانه حيثئذ يكون معلولاً لله
تعالى . والمعلول يجب أن يتبع علته ولايتأخر عنها وقد ثبت أن العالم
حادث وجد بعد أن لم يكن . فلم يكن حدوثه عن الله تعالى بطريق
العلية والضرورة . فلم يبق الا أنه حدث بارادة الله تعالى واختياره

ونخصيصه له الوقت الذى يوجد فيه ، فقد ثبت بهذا أن الله تعالى
إله العالم مرید مختار فوجبت له الارادة واستحال عليه ضدها وهو
الكراهية وهو المطلوب

« الصفة الثامنة » : القدرة يجب لله تعالى القدرة وهى : صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى ، يوجد بها الحوادث ويعدمها ، ويستحيل عليه
ضدها وهو العجز ، والدليل على ذلك ايجاده سبحانه لهذا العالم وما احتوى
عليه من الانواع ذات العظمة والغرابة : من نحو عالم الحيوان ، وعالم
النبات ، وعالم المعادن التى تشتمل على مئات الالوف من الاصناف
التي تختار فى عظمتها وغرابتها العقول ، وتغرق فى بحار عجائبيها الفهوم
ولا يصدق العقل السليم ، ومن أجلى المستحيلات عنده : ان من
أوجد هذا العالم بهذه العظمة ، والجلالة ، والغرابة يكون عاجزا مسلوب
القدرة . فثبت بهذا أن الله تعالى إله هذا العالم الذى أوجده من
العدم بتلك العظمة ، يجب له القدرة ، ويستحيل عليه ضدها وهو
العجز وهذا هو المطلوب

« الصفة التاسعة » العلم : يجب لله تعالى صفة العلم وهى : صفة
قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف له بها جميع الاشياء من الواجبات ،
والجائزات ، والمستحيلات ، فيعلم سبحانه كل شئ منها على ما هو
عليه من الوجوب ، أو الاستحالة ، أو الجواز ، ويستحيل عليه تعالى
ضده وهو الجهل . والدليل على ذلك ايجاده سبحانه لهذا العالم بما

احتوى عليه من العجائب والفرائب مع نهاية الاتقان ، وغاية الاحكام بما تختار في دقيق صنعه العقول ، وفي اتقانه الفهوم ، ويتضح هذا من نظر الانسان في أقرب الاشياء اليه ، وهو ذاته المشتملة على التدبير الباهر ، والاتقان الذي تختار فيه الازهان ، فكيف اذا تأمل في عجائب الكواكب ونظامها ، وعالم الحيوان ، والنبات ، والمعدن ، وما حوته من الانواع ، والموافقات ، والاختلافات الى غير ذلك من العجب العجيب ؟ ومن المستحيل عند العقل السليم : أن الذي أوجد هذا العالم بهذا الاتقان والاحكام ، ودقيق الصنعة ، وعجيب الوضع يكون جاهلا غير عالم ، فثبت بهذا أن الله تعالى إله العالم الذي أوجده بهذا الاتقان يجب له العلم ، ويستحيل عليه ضده وهو الجهل وهذا هو المطلوب .

وتوضيح دليل وجوب القدرة ، والعلم لله تعالى بنوع من البسط أن نقول : ان من نظر مثلا ساعة من الساعات التي يستعلم بها الوقت المحتوية على عدة آلات هندسية ، متقنة محكمة ، حتى وفيت بالغرض وضبطت الاوقات حتى الثواني منها : لا شك عنده ، ولا ريب في أن لها صانعا صنعها ، وان هذا الصانع له قدرة كافية لصنعها ، وعم كاف لاتقانها وإحكامها حتي تنفي بالغرض المقصود منها . ومن يصدق بانها حصات وتكونت بنفسها بطريق الصدفة بدون صانع صنعها واتقنها . أو أن صانعها عاجز مقطوع اليدين والرجلين جاهل بصنوع

الهندسة والصنائع . بل هو خامل الفكر . جاهل بكل علم . ومع ذلك صنعها بذلك الاتقان والاحكام فيعد هذا المصدق من الحمقاء . الذين لا يفرقون بين الارض والسماء . فكذلك اذا نظرنا في هذا العالم مع ما احتوى عليه من عجائب كواكبه . وغرائب حيوانه . ونباته ، ومعدنه التي ملأت علومها الكتب وطفحت بها الصحف . ولم نزل قاصرين عن الاحاطة بكل ما اشتملت عليه من العظمة والغرابة - كما يعلم من الاطلاع على كتب الفنون المتكفلة بالكلام على هذه العوالم - نجزم قطعا مع غاية اطمئنان قلوبنا بان هذا العالم بجميع مشتملاته لا بد له من صانع صنعه وأمره بهذا الاتقان والاحكام . وبوع أنواعه وصنف أصنافه . وميز أشخاصه . وهو قادر أتم القدرة . وعالم آكل العالم . يستحيل عليه العجز والجهل . ومن نسب ذلك الصنع العظيم العجيب الى حدوثه بنفسه صدفة وانفاقا . أو الى شيء آخر عاجز جاهل خال عن كل ادراك ومعرفة فلا شك أنه من أحمق الحمقاء . وجاهل الجاهل ؟ وان تستر بنمويتها واهية . وخرافات ساقطة ؛ ذ فطرة العقل السليم تاتي تصديق دعواه الباطلة ؛ فنحن نجزم بما ستقدناه من نسبة صنع هذا العالم الى الله القادر العليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

والصدقة الماترة السهم : يجب لله تعالى
تدبيره ، فانه قد بيناه ، ان البستة

ويستحيل عليه ضده وهو الصمم ، والدليل على ذلك ان الصمم نقص والنقص على إله العالم الذي أوجده مكملًا، ووهب السمع لبعض أنواعه، وجعله من أكبر النعم عليهم محال . وإذا استحال عليه سبحانه الصمم وجب له السمع وهو المطلوب

« الصفة الحادية عشرة » البصر : يجب لله تعالى صفة البصر وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بمقلة ولا حدقة : تنكشف له تعالى بها مبصراته . ويستحيل عليه تعالى ضده وهو العمى ، والدليل على ذلك ان العمى نقص والنقص على الله تعالى الذي أوجد هذا العالم مكملًا ، وزين بعض أنواعه بنعمة البصر محال . وإذا استحال عليه تعالى العمى وجب له البصر وهو المطلوب

« الصفة الثانية عشرة » الكلام : يجب لله تعالى. صفة الكلام وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت : تدل على الواجبات . والمستحيلات . والجائزات ما كان منها وما يكون : يفهم بها سبحانه ما يريد أفهامه لأحد عباده . ويستحيل عليه ضده وهو البكم . والدليل على ذلك أن البكم نقص والنقص على الله تعالى إله العالم الذي أوجده وكل بعض أنواعه بالنطق والكلام محال وإذا استحال عليه سبحانه البكم وجب له الكلام وهو المطلوب

وتوضيح دليل وجوب صفة السمع ، والبصر ، والكلام له تعالى واستحالة أضدادها وهي : الصمم ، والعمى ، والبكم بنوع

أن نقول : إن الصفات التسع التي تقدم اثبات وجوبها له تعالى واستحالة أضدادها : وهي أى تلك الصفات ، الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وقيامه بنفسه ، والوحدانية ، والارادة ، والقدرة . والعلم وإن كان عليها مدار الألوهية ووجود إله متصف بها يكفي في توبيخ وجود هذا العالم ، ويقنع العقل السليم ، لكننا إذا تأملنا بعد ذلك في شأن هذا الإله سبحانه وفي بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان والأحكام ، بحيث إنه سبحانه أعطى كل شيء كماله وكل ما يقوم بوجوده ، ويصلح لشأنه ، نجزم بأنه إذا كانت مصنوعاته في هذا الكمال فمن المستحيل أن يكون هو سبحانه ناقصا لأننا في جميع ما نتصوره لا نجد الشيء يوجد مثله فضلا عن أن الناقص يوجد وابتدع الكامل أو أن الكامل يوجد أكمل منه ، هذا الإنسان هو أعلم الحيوانات وأقدرها في الصناعة ، مهما صنع وابتدع ، فانه لا يقرب في صنعه من الكمال الذي هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو إنسان بل لو سقطت شعرة من جسده لا يقدر على إعادتها كما كانت . وما نراه يجري على يده من ظهور النبات ، والحيوان ، فأنما هو بمباشرة الأوامر التي جعلها الله تعالى أسبابا عادية لتولد النبات أو الحيوان : فنراه ينزل المطر في الأرض ويأمره بالحرارة ويسقيه الماء فينبت منه ما يشاء من الزروع والثمار ، ويحدث فيه سائر خواصه

من اللون ، والطعم والرائحة ، وغير ذلك ، وكذلك يضع بيض الطائر في الحرارة فيتولد منه طائر وهو لا يدري كيف تكون ذلك الطائر ، وشق سمعه ، وبصره ، وتصور لجه ، ودمه ، وسائر أعضائه ، وفي هذا بيان ظاهر أن الانسان لم يصنع النبات ، والحيوان ، وإنما تسبب في صنعهما ، مع جهله بكيفية نشأتها عن أسبابهما ، وإله العالم هو المنفرد بصنعهما جل وعز ، فعلى جميع ما تقدم : يحزم بأن هذا الاله الذي أوجد العالم من العدم ، ونوع منه الأنواع التي تحار فيها الافهام ، وكل بعضها بالسمع والبصر والكلام ، يجب أن يكون له مرتبة السكال في صفاته التي ثبتت لدينا بالدليل العقلي وفي كل صفة كمالية نليق به تعالى والا كان دون مصنوعاته وذلك خلاف ما يصدق به العقل ، فنعتقد أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكامل ، بل متصف بكل صفة كال تليق بشأن الألوهية ، ويستحيل عليه تعالى العسم ، والعمى ، والبكم ، وهو الذي أبدع السمع ، وأثار البصر ، وأطلق اللسان بالكلام ، كما يستحيل عليه تعالى أن يكون ناقصا في صفة كمالية وقد أوجد في مصنوعاته كل كمال

هذا : ويسوغ لنا معتر المسلمين أن نكتفي في اعتقاد نبوت هذه الصفات الثلاث وهي : البصر ، والسمع ، والكلام ، إلى ، إلى الدليل السمعي من نحو قوله تعالى « وهو السميع البصير » وهو « وكلام الله موسى تكالما » ونخرج من ذلك أن الله تعالى

« الصفة الثالثة عشرة » الحياة : يجب لله تعالى صفة الحياة وهي : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، تصحح عقلا اتصافه بصفاته الجليلة : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، ويستحيل عليه تعالى ضدها وهو الموت ، والدليل على ذلك أنه لو كان ميتا لما صح اتصافه بصفاته التي قام الدليل على وجوب اتصافه بها : من نحو القدرة ، والارادة ، والعلم ، لكن قام الدليل على وجوب اتصافه بها فمن المحال أن يكون سبحانه وتعالى ميتا ، وإذا استحال عليه الموت وجب له الحياة وهو المطلوب

الفصل الثالث

في بيان أن من صفات الله تعالى — التي تقدمت — ما يتعلق بالأشياء ، و — تعلقها ، وأن منها ما لا يتعلق بشيء .
اعلم أن صفات الله تعالى الثلاث عشرة التي تقدم لنا إقامة الدلائل على وجوبها له تعالى ، وأستدالة أضدادها ، منها ما لا يتعلق بشيء ، وهي سبع صفات : الوجود ، والعدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه ، والوحدانية ، والحياة ، ومعنى عدم تعلقها بشيء أنه لا يكون بها تخصيص الأشياء ولا إيجادها ولا كسفها ولا الدلالة ما بها كما يكون للصفات الآتية ، ومنها ما له تعلق بالأشياء وهي ست صفات : تعالى وهي : الارادة ، والقدرة ، السمع ، والبصر ، والارادة ، الكلام .

أما الإرادة والقدرة فيتعلقان بالجائزات فقط . ولا يتعلقان بالواجبات ، والمستحيلات . فالإرادة تتعلق بالجائز تتعلق تخصيص فيخصص الله تعالى بها في الأزل الجائز ببعض ما يجوز عليه . مثلاً يخص الله تعالى في الأزل زيدا بأنه يوجد أم لا . وبأنه إذا وجد يكون على صفة كذا في الزمن الفلاني . والمكان الفلاني . والجهة الفلانية من الأرض . وهلم جرا وبهذا التخصيص يجب أن يكون هذا الجائز على ما خصصه الله تعالى به بإرادته ويستحيل أن يكون بخلاف ذلك ، لأنه لو كان بخلاف ما أراد الله تعالى فيه لزم أن يكون الله تعالى كارها مقهورا يحصل في ملكه ما لا يريد وهو حالة لا يرضى بها المخلوق المملوك فما بالك بالخالق ملك الملوك سبحانه وتعالى ؟ والقدرة له تعالى تتعلق بالجائز تتعلق بتأثير بإيجاده أو بإعدامه على طبق ما تعلقت به الإرادة في الأزل منلا إذا تعلقت إرادته تعالى في الأزل بإيجاد زيد على صفة كذا في زمن كذا في مكان كذا فإذا جاء الزمن الذي تعلقت إرادته تعالى بإيجاد زيد فيه تعلقت قدرته تعالى بإيجاده في وجوده سبحانه فيه بقدرته على الصفة التي خصصه بها في المكان الذي خصصه له بإرادته ، وكذلك إذا تعلقت إرادته تعالى بإعدام عمرو على وجه مخصوص تعلقت قدرته تعالى بإعدامه ، فيعدمه سبحانه بقدرته على طبق تتعلق الإرادة بدون تخلف . والا لزم تخلف إرادة الله تعالى وهو محال كما تقدم قريباً

وانما لم تتعلق كل من ارادة الله تعالى ، وقدره لا ايجادا ، ولا
إعداما بالواجبات : كذاته تعالى ، وصفاته ، وملازمة الجرم للحيز ،
ولا بالمستحيالات : كالشريك له تعالى ، والجمع بين النقيضين : ككون
زيد موجودا معدوما في آن واحد ، فلأن الواجب حاصل حتما ولا
يمكن خروجه عن الوجود إلى العدم ، فلا تتعلق به الارادة والقدرة
لا ايجادا لأن ذلك تحصيل حاصل وهو محال ، ولا إعداما لاستحالة
عدمه وخروجه عن الوجود ، ولأن المستحيل معدوم حتما ولا
يقبل الوجود فلا تتعلق به الأرادة والقدرة لا إعداما لأن ذلك
تحصيل حاصل وهو محال ولا إيجادا لاستحالة وجوده وخروجه عن
العدم . وعلى تقرير هذا المقام لو سأل سائل وقال : هل يقدر الله
تعالى على إعدام الواجب الفلاني أو على إيجاد المستحيل الفلاني
كشريكه تعالى ؟ فالجواب المقترن بالأدب أن نقول : إن البرهان قد
دل على أن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيالات
لا ايجادا ولا إعداما وما ذكرت أيها السائل فهو من الواجبات ،
أو من المستحيالات فقدرة الله لا تتعلق بهما ، ولانقول : إنه تعالى
لا يقدر على ذلك لأن هذا من سوء الأدب في جانب الحضرة
الالهية ويوهم العجز عليه تعالى وتقدس

وأما السمع والبصر له تعالى فيتعلقان بجميع الموجودات — سواء
كانت واجبات ، أو جائزات تعاق انكشاف — ولا يتعلقان بالمعدومات

سواء كانت مستحيلات أو جائزات - فيرى سبحانه وتعالى ذاته الكريمة وصفاته ويسمع كلامه كما أنه يرى ويسمع كل مرئي ومسموع جائز من مخلوقاته فيرى الذرة في الليلة الظلماء ، ويسمع صوت مشيها على الصخرة الصماء ؛ لأن سمعه وبصره تعالى ليس كسمع الحوادث وبصرهم الحادئين الناقصين المتوقف ادرا كهما على شروط وأسباب عادية

وأما علمه تعالى وكلامه سبحانه فيتعلقان بالواجبات ، والمستحيلات والجائزات الموجودات منها والمعدومات : أما علمه فيتعلق بهذه المذكورات تعلق انكشاف : فيعلم الله تعالى بعلمه الواجب وأنه واجب وذلك : كذاته المقدسة وصفاته ، ويعلم بعلمه المستحيل وأنه مستحيل وذلك : كالشريك له تعالى ، ويعلم الجائز وأنه حائز سواء كان موجودا أو معدوما سيوجد أو لا يوجد فيعلمه سبحانه على ما هو عليه ولا يعزب عن علمه سبحانه شيء من كل شيء أو جزئي في الأرض أو في السماء : فيعلم عدد الرمال وقطرات الأمطار وورق الأشجار وذرات الكائنات ولا نهاية لمعلوماته سبحانه

وأما كلامه تعالى فيتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق دلالة : فكلامه سبحانه الذي ليس بحرف ولا صوت يدل على كل واجب ومستحيل وجائز موجود أو معدوم ، بكل ما هو عليه ويفهم الله تعالى بكلامه كل واحد منها لمن أراد إقناعه من عبده كالأنكته ورسله عليهم الصلاة والسلام

الفصل الرابع

في بيان أنه يجب أن نعتقد بجميع صفاته تعالى وأسمائه التي ورد
الشرع بما يفيد ثبوتها له تعالى ، مع بيان أن أسماءه تعالى توقيفية
اعلم أنه لما ثبت عندنا معشر المسلمين أن سيدنا محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى بدليل
ما ظهر على يديه من المعجزات الخارقة للعادة التي كان ظهورها على
يديه تصديقا له من جانب الله تعالى بدعوى الرسالة ، وحيث ثبت
أنه رسول الله: يجب له الصدق في جميع ما يخبر به ، ويستحيل عليه
الكذب ، كما سيأتي برهان جميع ذلك في الباب الثاني إن شاء الله تعالى :
وجب علينا وصح لنا تصديقه في جميع ما جاء به في نصوص شريعته
من اثبات الصفات لله تعالى ، وقد جاء في نصوص شريعته من القرآن
الشريف وحديثه المنيف ما يفيد وصف الله تعالى بالصفات التي
تقدم ذكرها مع اثباتها لله تعالى بالدليل العقلي واستحالة تضادها
وهي التي عليها مدار الألوهية وعظمة شأن الربوبية ، وجاء أيضا
في نصوص الشريعة ما يفيد وصف الله تعالى بصفات أخرى كإلإية : من
أنه تعالى عدل حكيم صمد هاد خالق رزاق قيوم إلى أمثال ذلك مما
صفحت به نصوص الشريعة الحممدية : فيجب الإيمان بجميع ماورد له
تعالى من الصفات العلية في نصوص الشريعة الأحممدية ؛ لأن الخبر بها

وهو رسول الله صادق مجزوم بصدقه بما قام من دلائل رسالته من
عند الله تعالى

ثم كما جاءت نصوص الشريعة باثبات الصفات له تعالى كذلك
جاءت باثبات أسمائه سبحانه التي سمي بها نفسه ومنها لفظ «الله» الذي
هو الاسم الخاص به تعالى وهذا اللفظ الكريم كما أن اللغة العربية
تطلقه على الاله سبحانه وتعالى قبل إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة
والسلام كذلك جاءت الشريعة باطلاقه عليه تعالى فتسميته تعالى به
تسمية شرعية نعتمد بها على نص الشريعة وهكذا بقية أسمائه تبارك
وتعالى فتسميته بكل منها شرعية ولا يجوز تسميته باسم لم يرد به
الشرع الشريف، وهذا معنى قول علماء الاسلام : إن أسماء الله تعالى
توقيفية ، أى ان اطلاق كل اسم منها عليه بتوقيف الشرع الشريف
ولا يجوز اطلاق اسم عليه تعالى بدون توقيفه

الفصل الخامس

في بيان ماورد في نصوص الشريعة نسبته إلى الله تعالى مما يوهب
التشبيه والمماثلة لحوادث ، وبيان كيفية اعتقاد أهل السنة والجماعة
في ذلك ، وطريق تأويله عند الحاجة اليه
إعلم أنه كما ورد في الشريعة المحمدية ما يفيد وصف الله تعالى

بصفات كالية، منها ما قامت الدلائل العقلية على ثبوته له تعالى ، ومنها ما ليس كذلك لكن لما أخبر به الرسول المبرهن على صدقه بالمعجزات ولا مانع عقلا يمنع من ثبوته له تعالى آمنا وصدقنا به وذلك مثل كونه تعالى قابل التوبة من عباده وانه يشيب الطائع ويعذب العاصي كذلك وقد ورد في نصوص الشريعة الغراء نسبة أشياء لله تعالى توهم ظواهرها مماثلته ومشابهته للحوادث وسميت تلك النصوص بالمتشابهات والحال أن الدليل العقلي قد قام على وجوب مخالفته تعالى للحوادث واستحالة مماثلته لها ، وكذلك الدليل النقلى ورد بذلك . قال الله تعالى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فنعتقد فى تلك النصوص المتشابهات أن لها معانى صحيحة تليق به تعالى خالية عن استلزام مماثلته تعالى للحوادث : وليست هى المعانى المتبادرة من ظواهر تلك النصوص المستلزمة للمماثلة وتفوض علم حقيقة تلك المعانى الصحيحة اليه سبحانه فنكون بذلك الاعتقاد منزهين له تعالى عن مماثلة الحوادث ومفوضين له فى علم ما أراد من تلك النصوص ، وهكذا كان اعتقاد السلف الصالح رضى الله عنهم ، لكن لما ظهر بعض الفرق المبتدعة وتمسكوا بظواهر تلك النصوص المتشابهات واعتقدوا المعانى المتبادرة منها المستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث ، وخيف على اعتقاد بعض الضعفاء فى الدين من سريان بدعتهم اليه تأول العلماء المتأخرون هذه النصوص المتشابهات تأويلات مناسبة موافقة للأدلة العقلية على ما ذكر

في كتب التفاسير وشروح الأحاديث، وهم في تلك التأريخات عند
التصدر لرد مذهب المبتدعة أو تثبيت عقيدة الضعفاء كأنهم يقولون
مادامت تلك النصوص المتشابهات محتملة لمعان صحيحة مناسبة موافقة
للأدلة العقلية جارية على قواعد اللغة العربية فبالحمل عليها احتمالاً
يحصل التوفيق بينها وبين الأدلة الدالة على وجوب مخالفته تعالى
للحوادث واستحالة مماثلته تعالى لها ونسلم من اعتقاد ما ربما يخرج به
المراء عن الإيمان، والعياذ بالله تعالى — وبيان الطريقتين في ذلك أنه
قد ورد قوله تعالى في القرآن المجيد « الرحمن على العرش استوى »
وقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك » وقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم »
وقوله تعالى : « والسموات مطويات بيمينه » وقوله تعالى « وجاء
ربك » إلى غير ذلك من الآيات ، وورد في الحديث الشريف قوله
عليه الصلاة والسلام « رأيت ربي في أحسن صورة » وقوله عليه
الصلاة والسلام « إن الجبار يضع قدمه في النار » وقوله عليه الصلاة
والسلام « ينزل ربكم إلى سماء الدنيا » إلى غير ذلك من الأحاديث ،
فالطريق الأسلم الذي درج عليه السلف الصالح رضي الله تعالى
عنهم أن نقول في هذه النصوص : إن لها معاني غير ما يتبادر منها وهي
صحيحة موافقة للأدلة العقلية والنقلية الدالة على وجوب مخالفته تعالى
للحوادث ، وإنا نؤمن بها ، ونفوض معرفة حقيقتها إلى عالم الله تعالى .
وهذا القدر يكفي في صحة الإيمان فاستواؤه تعالى على العرش هو صفة

من صفاته تعالى اللاتئة به ليس كاستواء الحادث المستلزم للجسمية والجهة ، والنزول الى سماء الدنيا صفة من صفاته تعالى اللاتئة به ليس كنزول الحادث المستلزم الانتقال من حيز إلى حيز ، والمجى كذلك ، ونقول أيضا : إن لة تعالى يدا ويمينا وقدما ليست كأعضائنا بل : هى على ماتلىق به سبحانه لاتستلزم التجزؤ والمقدار وهو سبحانه أعلم بحقيقة تلك المعانى التى أرادها من تلك النصوص ، وهكذا القول فى كل نص متشابه

وإذا تصدينا لرد مذهب المبتدع المدعى مماثلته تعالى للحوادث تمسكا بظواهر هذه النصوص ، أو أردنا تثبيت عقيدة الضعفاء فى الدين ، فنقول على طريق التأويل : ان تلك النصوص تحتل معانى غير مايتبادر منها لاتستلزم مماثلته تعالى للحوادث وبالحمل عليها توافق الأدلة العقلية والنقلية الدالة على تنزيهه تعالى عن المماثلة ونأمن بذلك من الخطأ فى الاعتقاد الذى ربما يؤدى إلى الكفر والعباذ بالله تعالى ، وبيان ذلك أنه يحتمل أن المراد من الاستواء على العرش هو الاستيلاء والقهر كما قال الشاعر العربى :

❖ قد استوى بشر على العراق ❖

أى استولى ، والمراد بذلك بيان عظمتة تعالى ونفوذ حكمه على كل شىء من هذا العالم ، ويحتمل أن المراد بالنزول الى سماء الدنيا هو الاقبال على عباده ، وقد ورد فى اللغة العربية النزول بمعنى الاقبال فالمعنى ان

الله تعالى يقبل على عباده في ذلك الحين فعبء عن ذلك الاقبال بالتزول الى سماء الدنيا، ويحتمل أن المراد بالمجيء هو الاقبال أيضا وأن المراد وجاء أمر ربك وسلطانه، ويحتمل أن المراد بالوجه الذات فانه يطلق ويراد به الذات، وأن المراد باليد واليمين القدرة وكل ذلك له شواهد من استعمالات اللغة العربية التي جاء القرآن والأحاديث النبوية بها، وهكذا يجري التأويل في كل ما ورد من المتشابهات فليس شئ منها إلا وقد وجد له العلماء تأويلا مناسباً موافقاً للأدلة العقلية على قانون اللغة العربية، وقد أفردوا لذلك كتباً تكفلت ببيان ذلك، فعلى كل مكلف أن يؤمن بجميع ما ورد من تلك النصوص المتشابهات، ويعتقد أن لها معاني صحيحة لا ثقة بجانبه تعالى غير مستلزمة لمماثلته تعالى للحوادث، ويفوض معرفة حقيقتها المرادة منها الى علم الله، وإذا احتاج الى التأويل في دفع مذهب مبتدع، أو لرفع الوسوسة عن قلبه ولم يكن أهلاً للتأويل فيرجع الى العلماء الأعلام ويفهم منهم تأويل ما أراد تأويله ولا يستقل به وهو ليس أهلاً له خشية أن يقع في خطأ يدخله في البدعة أو في الكفر نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة وليعلم أن النصوص المتشابهات التي مر الكلام عليها في هذا الفصل هي الآيات القرآنية وأحاديث الرسول الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام: وأما ما ينسبه الى الرسول عليه السلام بعض أهل الأخبار ولم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام بنقل العدول فهذا وإن ناله لا يجب علينا التصديق به فضلاً عن الاحتياج الى تأويله. والله تعالى أعلم

لفصل السّادس

فى بيان ما يجوز فى حق الله تعالى ، وبيان مسائل خالفنا فيها
أهل البدع

قد تقدم بيان ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه سبحانه ، فلنشرح
الآن فى هذا الفصل ما يجوز فى حقه تعالى فنقول : —

يجوز فى حقه تعالى فعل كل جائز أو تركه ، مهما كان الجائز عظيما
دقيق الصنعة : فالله تعالى قادر على صنعه ، والدليل على ذلك من
نصوص الشرع الشريف قوله تعالى « والله على كل شىء قدير » ، والدليل
عليه عقلا : أن الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، وإن كل جائز هو
قابل لا وجود والعدم ، فيكون الله تعالى قادراً على إيجاد وإعدامه ،
والذى يوضح جواز فعله تعالى لكل جائز أو تركه مهما كان الجائز
عظيما دقيقا ما نشاهده فى هذا العالم : من عظام مصنوعات تعالى ،
وغرائب مبتدعاته ، فانه قد تصرف فيها بقدرته إيجاد وإعدام ،
نعم قد جرت عادته تعالى بأن لا يوجد خوارق العادات ، أى الامور
العظيمة التى لم تجر العادة بوجودها الا على أيدى رسله عليهم الصلاة
والسلام معجزة لهم ، وتصديقا لدعواهم الرسالة ، أو على أيدى أوليائه
كرامة لهم ، أو على أيدى بعض عباده معونة لهم ، أو استدراجا ،
أو خذلا لنا . كما سيأتى تفصيله — وكل ذلك فى النادر

ومن الجائز في حقه تعالى خلق الخير والشر ، ولا يكون ذلك منه قبيحا ، خلافا لبعض المبتدعة ، لأنه تعالى : فاعل مختار ، يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وربما يكون الشيء حسنا في نفسه وان خفي علينا حسنه وعددناه شراً ، على أن الشر يكون شرا بالنسبة الينا ، ولذلك نؤاخذ بكسبه ، ومخالفة النهي عنه ، ويكون فعله منا قبيحا ، وأما بالنسبة اليه تعالى فلا يقال : ان السيء الفلاني خير ، والشيء الفلاني شر ، لأنه سبحانه لا ينتفع بشيء ، ولا يتضرر من شيء ، وأيضا انه كثيرا ما يقع الشر في الكون ، فلو كان بغير خلقه وارادته تعالى لزم أن يقع كثير في ملكه ليس بخلقه ، ولا بارادته ، وهو عجز وقهر على منصب الالهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ومن الجائز عليه تعالى أن يفعل غير الصالح وغير الاصلح في حق عباده ، ولا يجب عليه أن يفعل ذلك في حقهم خلافا لبعض المبتدعة لأنه لو وجب عليه تعالى فعل الصالح والأصلح لعباده لما خلق الكافر الفقير ، المعبذب في الدنيا بالفقر وفي الآخرة بالمعذاب الأليم لأن الاصلح له عدم خلقه ، وإن خلق فالأصلح له إيمانه صغيرا ، أو سلبه عقله قبل بلوغ سن التكليف لكنه تعالى خلق ذلك الكافر ولم يفعل الاصلح في حقه : فظهر أنه تعالى لا يجب عليه فعل الصالح والأصلح لعباده ، بل هو الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ومن الجائز في حقه تعالى عقلا : أن يعذب المطيع وينعم العاصي

ولا يقبح ذلك منه ، لانه مالك مطلق ، فاعل مختار ، ولانه ان أثابتنا
فبفضله ، وان عذبنا فبعدله ، ولاتأثير للطاعة في وجوب الثواب ،
ولاتأثير للمعصية في وجوب العذاب لكن لما ورد في نصوص
الشريعة المحمدية وعده سبحانه وتعالى للمطيع بالثواب ووعيده
للعاصي بالعقاب : صار واجبا شرعا أن لا يتخلف وعده ، ولا وعيده ؛
لانه لو تخلف ذلك لزم الكذب والخلف في خبره تعالى وذلك محال .
لكن الوعد بالثواب يجب شرعا أن لا يتخلف في حق أحد من المطيعين
لانه نقص والنقص عليه تعالى محال . وأما الوعيد بالعقاب فقد أخرج
منه المؤمنون المغفور لهم بالدلائل الدالة على أن الله تعالى قد يغفر
لبعض عباده الذنوب ، وأما الكفار فلا يتخلف الوعيد في حقهم
للدالة الشرعية الدالة على تحتم خلودهم في النار ، وأما المؤمنون غير
المغفور لهم معاصيهم فلا بد من نفوذ الوعيد في حقهم ولو بتعذيب
واحد منهم ، أثلا يلزم الخلف في خبره تعالى

ومن الجائز عليه تعالى عقلا أن ينظر بالابصار ، لانه سبحانه
وتعالى موجود ، وكل موجود يصح أن يرى ، فهو سبحانه يصح
أن يرى ، لكن لم نسمع رؤيته تعالى في الدنيا لغير نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم ، ورؤيته سبحانه في الآخرة للمؤمنين واجبة تسرعا باتفاق
أهل السنة والجماعة لنص القرآن ، والأحاديث الشريفة ، ولاجماع
الصحابة عليها ، لكن رؤيته تعالى بلا كيف ، وبلا انحصار ، ومعنى

قولنا « بلا كيف » انها بدون تكيفه سبحانه بكيفية من كفيات الحوادث من نحو المقابلة للرأى ، والجهة ، والتحيز ، لأن الرؤية قوة إدراكية يجعلها الله تعالى فى خلقه لا يشترط فيها عقلا مقابلة المرئى ، ولا كونه فى جهه وحيز ، ولا غير ذلك ، وانما جعلت هذه شروطا عادية : يجوز أن يخلق الله تعالى الرؤية بدونها ، ومعنى قولنا « إن رؤيته تعالى بلا انحصار » أى بدون انحصاره تعالى عند الرأى بحيث يحيط به ، لاستحالة الحدود والنهايات له تعالى ، ولا تخالف بين وجوب رؤية المؤمنين له تعالى وبين قوله فى القرآن الشريف « لا تدركه الابصار » لان معنى إدراك الابصار رؤيتها على وجه الاحاطة بحيث يكون المرئى متحيزا بحدود ونهايات ، وهذا لانقول به ، لأنه محال عليه تعالى ، وقد خالف فى جواز رؤيته بعض المبتدعة ، وتمسكوا بشبه مردودة عليهم فى الكتب المطولة

ومن الجائز عليه تعالى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق فليس ارسالهم واجبا عليه تعالى ، ولا مستحيل ، بل اطف منة تعالى ، وإحسان ورحمة بمحض الفضل ، لما فى ارسالهم من الحكم والمصالح النى لا تحصى : منها ما صدة العقل فيما يستقل بمعرفته ، مثل وجود الاله سبحانه ، وعلمه وقدرته ، ومنها استفادة الحكم فيما لا يستقل به العقل مثل المعاد الجسمانى ، والحساب ، ومنها بيان حال الافعال التى نحسن تارة ، وتفبح أخرى من غير اهتداء العقل

الى مواقعها ، ومنها بيان منافع الاغذية ، والادوية ، ومضارها
التي لا تفي بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من
الاخطار، ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة
فى العمليات ، والعمليات ، ومنها تعليم الصنائع الخفية من الحاجيات ،
والضروريات ، ومنها تعليمهم الاخلاق الفاضلة ، الراجعة الى الاشخاص
والسياسيات الكاملة العائدة الى الجماعات فى المنازل والمدن ، ومنها
الاخبار بتفاصيل ثواب المطيع ، وعقاب العاصي ، ترغيباً فى الحسنات
وتحذيراً عن السيئات ، الى غير ذلك من العوائد ، ثم بعد اعتقادنا
بجواز ارسالهم فى حق الله تعالى ، وأنه ليس بواجب عليه : يجب علينا
اعتقاد حصول ارسالهم من لدن آدم الى رسولنا محمد صلى الله تعالى
عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين وسلم ، وسياقى بيان كيفية تفصيل
الايان بهم عليهم الصلاة والسلام فى الباب الثانى والله الموفق .

الباب الثاني

في بيان الايمان بالرسول ، والانبياء ، والملائكة ، والكتب
واليوم الآخر . وما يتبع ذلك . وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في بيان الايمان بالرسول والانبياء عليهم الصلاة والسلام

اعلم أن الرسول هو : انسان ذكر حر أوحى الله تعالى اليه
بشرع وأمره بتبليغه للخلق وان لم يؤمر بالتبليغ يسمى نبيا فقط
وقد تقدم ان ارسال الرسل من الجائز على الله تعالى . ولكن قد حصل
منه تعالى ارسالهم تفضلا على عبادهم لما فيه من الفوائد الكثيرة . والايمان
بالرسل هو : أن تؤمن بأن الله تعالى أرسلهم مبشرين ومنذرين ،
وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات ، وان تؤمن بما يجب لهم ، وما يستحيل
عليهم ، وما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام : فيجب لهم الامانة
ويستحيل عليهم ضدها وهو الخيانة ، ويجب لهم الصدق ويستحيل
عليهم ضدها وهو الكذب ، ويجب لهم الفطانة ويستحيل عليهم ضدها
وهو الغفلة وعدم الفطنة . ويجب لهم تبليغ ما أمرهم الله تعالى بتبليغه

للخلق ويستحيل عليهم ضده وهو كتمان ذلك ، ويجوز في حقهم
الاعراض البشرية التي لا تؤدي الى نقص في مراتبهم العلية ، وكال
الايان بما ذكرنا أن يكون . قرونا بالدليل . فنقول في بيان ذلك :

يجب للرسول عليهم الصلاة والسلام الأمانة ، وهي العصمة
ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم : من التلبس بمعصية . ويستحيل
عليهم ضد الأمانة وهي الخيانة . فهم محفوظون طاهرا : من الزنا ،
وشرب الخمر ، والكذب ، وأمثال ذلك : من المنهات الظاهرة ،
ومحفوظون باطنا : من الحسد ، والكبر ، والرياء ، وأمثال ذلك : من
المنهات الباطنة ، وما أوهم من النصوص الشرعية وقوع المعصية منهم :
فمؤول بتأويلات حسنة مذكورة في كتب التفاسير ، وشروح
الاحاديث النبوية ، فلي المكاف اذا اشتبه بشيء من تلك النصوص
في حق الرسول عليه الصلاة والسلام أن يرجع في تأويله الى العلماء
الاعلام . ليفهم منهم تأويله ويكون اعتقاده موافقا لاعتقاد أهل السنة
والجماعة ، والدليل على وجوب الأمانة للرسول عليهم الصلاة والسلام
واستحالة الخيانة عليهم أنهم لو خانوا بفعل معصية لكننا مأورين
به لأنه تعالى أدرنا باتباعهم : في أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم من
غير تفصيل ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر بالمعصية

وينجب لهم عليهم الصلاة والسلام الصدق ، ويستحيل عليهم

ضده وهو الكذب ، أما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم فيما يبلغونه عن الله تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا في ذلك للزم الكذب في خبره تعالى ، لتصديقه لهم ، بالمعجزات ، وهي خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على أيديهم تأييداً لهم ؛ لأنها نازلة من نزلة قوله سبحانه « صدق عبدي في كل ما يبلغ غنى » ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال عليه تعالى ، فيكون كذبهم فيما يبلغون عنه تعالى محالاً ، وإذا استحال كذبهم في ذلك وجب صدقهم فيه وهو المطلوب وأما وجوب صدقهم واستحالة الكذب عليهم في غير ما يبلغونه عنه تعالى فالدليل عليه أنهم لو كذبوا لكان كذبهم خيانة تخالف وجوب الأمانة والعصمة لهم ، وقد تقدم الدليل على وجوب الأمانة لهم ، واستحالة الخيانة عليهم صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام الفطانة ، وهي التفتن واليقظة ويستحيل عليهم ضدها ، وهو الغفلة وعدم اليقظة ، والدليل على ذلك أنهم لو لم يكونوا فطناء وكانوا مغفان لما أمكنهم إقامة الحججة على أخصائهم ، والمجادلة معهم ، لا قناعهم بالحق ، وهذا يخاف من نصيبهم الذي أرسلوا به ، هو : هداية الخلق إلى الحق ، فوجب بذلك لهم الفطانة ، واستحال عليهم ضدها ، وهو الغفلة وهو المطلوب

ويجب لهم عليهم الصلاة والسلام نبأيتهم بالخلق ما أمره الله تعالى بتبليغه ، ويستحيل عليهم ضده وهو كتبهم شيئاً من ذلك .

والدليل على ذلك أنهم لو كتبوا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكن ما مورين بكتمان العلم ؟ لأن الله تعالى أمرنا بالاعتداء بهم ، وكوننا ما مورين بكتمان العلم باطل ، فكتمانهم شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا ، فوجب لهم تبليغ ما أمروا بتبليغه واستحال عليهم كتمان شيء من ذلك وهو المطلوب

وأما الجائز في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو سائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية ، وذلك كالأكل ، والشرب ، وجماع النساء في الحلال ، والأمراض التي لا تخل بمنصب الرسالة ولا تكون منفرة للخلق عن الاجتماع بهم ، والأخذ عنهم ، والدليل على ذلك مشاهدة تلك الأعراض بهم وهي لا تخل بمنصب الرسالة ، وأما الأمراض التي تخل ، أو تنفر عنهم الخلق ، مثل الجنون ، والأغماء الطويل ، والجذام ، والبرص ، والعمى فهي ممتنعة عنهم ، ولم تثبت أن شعيبا كان أعمى ، وما كان بأيوب من البلاء فقد كان ألما تحت الجلد : ليس منفرا ، وما اشتهر في قصته من الحكايات المنفرة فهي : باطلة

وأما السوء فممتنع عليهم في الأخبار البلاغية ، أي التي يبلغونها لخلق نحو « الجنة أعدت للمتقين » في غير البلاغية أيضا ، نحر قام به ، وذهب عمرو ، لأنه يورث الشبهة لبعض الضعفاء في عموم أخبارهم وهو يناقض منصب الرسالة ، وأما السوء في أفعالهم غير البلاغية

والبلاغة : كالسهو في الصلاة ، فهو غير ممتنع عليهم ، وحكمة وقوعه منهم أن يرى الناس كيف يعملون عند حدوث السهو في عباداتهم ، لأن دلالة الفعل أوضح من دلالة القول . وأما النسيان فهو ممتنع عليهم في البلاغيات قولية كانت أو فعلية ، فالقولية نحو « الجنة أعدت للمتقين » والفعلية نحو صلاة الضحى ؛ إذا أمروا بفعلها ليقترن الناس بهم ، فلا يجوز نسيان شيء من ذلك قبل تبليغ الأولى بالقول ، والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من جانب الله تعالى لحكمة يعظمها . وأما النسيان من جانب الشيطان فمستحيل عليهم ؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل . ووسوسة الشيطان لآدم عليه السلام بتمثيل ظاهري . والممتنع لعبه ببواطنهم . والمخلص أنه يجوز على ظواهرهم ما يجوز على بقية البشر مما لا يؤدي إلى نقص وإخلال بمنصب الرسالة ، وأما ببواطنهم فنزهة محفوظة متعاقبة برؤسهم وما يومهم خلاف هذا فمؤول يرجع في فهم تأويله إلى العلماء الأعلام . وليعلم أن جميع ما ذكر في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوجوب ، والاستحالة ، والجواز : يلزمنا أن نعتقده في حق الأنبياء وهم : الذين أوحى الله تعالى إليهم بشريع ولم يأمرهم بتبليغه للخلق . لأنه ربما ترجع إليهم الناس في الاستفتاء عن أحكام شرائع الرسل قبلهم ، ولأنهم مأموون أن يبلغوا الخلق أنهم أنبياء . ليحترمواهم . ولأنهم يعملون بما أوحى إليهم

ثم ليعلم أنه يجب الايمان بجميع الانبياء والرسل اجمالا ، بأن يؤمن المكلف بكل نبي ورسول لله تعالى ، وبما يجب لهم . وما يستحيل ، وما يجوز ، والأولى أن لا يعين عددا مخصوصا لاختلاف الروايات في عددهم ، وقد قال تعالى « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » لكن يجب الايمان تفصيلا بالرسل الذين ذكرت اسماءهم في القرآن الشريف ، وقد جمعت اسماءهم الشريفة في هذه الايات :

أسماء رسل الله في القرآن	خمس وعشرون : فحذيانى
هم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود	يونس ، إلياس ، اليسع ، داود
اسحق ، ابراهيم ، لوط ، موسى	ذوالكفل ، يحيى ، زكريا ، عيسى
شعيب ، ثم صالح ، أيوب	هارون ، ثم يوسف ، يعقوب
ثم سليمان ، واسماعيل	محمد ، ختمهم الجليل

الفصل الثانى

فى شرح معجزات الرسل التى أيدهم الله تعالى بها ،
وبيان طريق وقوعها ، واقامة الحججة بها

علم أنه قد تقدم فى هذا الكتاب أن الجائز العقلى هو : ما يقبل
التبوت والانتفاء ، وأن كل جائز فهو داخل تحت تصرف قدرة الله

تعالى مهما كان عظيما ودقيق الصنع ، وتوضيح ذلك بعد ثبوت أن الخالق لهذه الكائنات هو الله تعالى ما نشاهده من أعماله في هذه المصنوعات ، من العظمة ، والدقة ، والحكمة

ولنشر إلى تفصيل بعض ذلك فنقول : لننظر الى عالم الكواكب وما اشتمل عليه : من العظمة ، والغرابة ، وعجيب الترتيب والانتظام ، كما يظهر من كتب علم الهيئة التي تكفلت بشرح حقيقة ذلك ، ولننظر الى عالم الجويات وما احتوى عليه ، من الهواء ، والرياح ، والبروق ، والرعود ، والسحاب ، والأمطار ، والكائنات الجوية التي أفردت بالتأليف ، وصارت علما واسعا ، ولننظر إلى الارض وما اشتملت عليه ، من الجبال ، والادوية ، والكهوف ، والسهول ، والبحار ، والانهار ، والينابيع ، والمعادن ، والكائنات الارضية : من الزلازل ، والتغيرات العظيمة ، ولننظر إلى عالم المعادن وما فيها ، وما احتوى عليه من الانواع المختلفة ، في الالوان والطعوم ، والخواص ، والمنافع ، ولننظر الى عالم النبات وما فيه من اختلاف الأشجار ، والأزهار ، والأثمار ، المتنوعة في الالوان ، والروائح ، والطعوم ، والأشكال ، والأقذار والخواص ، والمنافع وغرائب تولده ، ونموه ، واقامته ، وسائر أحواله التي أفردت بالتأليف وأصبحت علما من أعظم العلوم . ولننظر إلى عالم الحيوان وما يحويه من العظام والغرائب في اختلافه في الصغير والكبير ، والقوة والضعف .

والذكاء والبلادة ، وتباين الاشكال والهيئات والاصناف وما فيه من عجيب التركيب وغريب التأليف وما في أعضائه من إحكام الصنع ، وإتقان الوضع ، حتى وفي كل عضو بوظيفته ، وإذا نظرنا في أنفسنا وما اشتمل عليه الجسد الانساني من غريب الصنع ، وبديع التركيب لأخذتنا الحيرة وأدركتنا الدهشة ، وفي الاطلاع على كتب التشریح الانساني وما بيته من أعضاء الانسان ووظائفها ، وغرائب أبنيتها وتراكيبها وانتظاماتها ودقيق صنعها عبرة لأولى الألباب

ومن أغرب ما في الانسان حواسه : من السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس وأغربها حاسة البصر وما احتوت عليه من باهر الصنع بوضع طبقات العين وأشكالها وصفاتها وانتظامها وإحكامها على نوااميس كونية حتى وفدت بوظيفة الابصار التي تختار في كلفيته الافكار ، وتالله إن العلوم التي تكفلت بالكلام على هذه العوالم وشرح حقائقها وأحوالها وان تكن قد جاءت بكثير من عجائبها مما الاطلاع عليها يربي الايمان في القلوب — لمن وفقه الله تعالى — ويشهد لصانعها بعظيم القدرة ، وكمال العلم والحكمة ، لكن ما انطوى عليه من عجائبها ودقائق حكمها وأسرارها هو بحر عجاج لا تدركه العقول ، ولا نفى بالاحاطة به الروايات والنقول ، فسبحان من كانت هذه الكائنات بارادته وقدرته ، وتدبيره وحكمته ؟ فبعد التأمل في حدوث هذه الموجدات وأزده : لا بد لها من صانع هو رب الارض

والسموات نعمام قطعا: أن كل جائر عقلا مهما كان عظيما جسيما
وغريبا عجيبا فهو داخل تحت تصرف قدرة هذا الاله القادر العليم
الحكيم، ولكن وجدنا أنه سبحانه قد وضع في تكوين هذه الكائنات
وتصوير تلك العوالم أسبابا وقوانين جرت عادته تعالى في أحداث
هذه الحوادث عندها فجعل مثلا حدوث النبات بواسطة التراب
والماء والحرارة، وحدث الحيوان بواسطة انتقال مادته الأصلية
من الذكر إلى الأنثى وتنميته في جوف الأنثى بوسائل شتى مع
مرور زمن مخصوص على كل من هذين التكوينين ولكن لدى
تدقيق النظر والبحث في الأدلة العقلية، وملاحظة عظيم قدرته سبحانه
وكمال علمه وتدبر عجائب صنعه: ظهر لنا معشر أهل السنة والجماعة
أن جميع تلك الأسباب والقوانين التي وضعها الله سبحانه، وجرت
عادته في إحداث الحوادث عندها ما هي إلا عادية بمعنى إن عادته
تعالى جرت بأحداث الحوادث عندها لا بتأثيرها، وإن الزمن الذي
خصص لتكوينها وحدثها ما هو إلا عادي أيضا، وهو سبحانه
وتعالى قادر على إحداث تلك الحوادث بدون تلك الأسباب والقوانين
وبدون مرور ذلك الزمن الذي يكون ظرفا لتكوينها وحدثها ويظهر
ذلك لمن تأمل أن التراب والماء والحرارة لا يظهر فيها أدنى داع
لأن تصور أنواع النباتات من كل نوع منها على لون، وطعم، ورائحة
وشكل خاص، وليس عندها قدرة، وعلم، وإرادة، أوها، ما تصرف

فى أنواع النباتات ذلك التصرف العجيب الغريب ، وأيضاً أنا نجد
بعض أنواع النبات مشتملاً على دقائق من الصنعة ، وغرائب من
الوضع قد يحدث فى زمن قصير جداً ، ونجد نوعاً آخر بسيط
التكوين : ليس فيه تلك الدقائق ، ولا يحتوى على تلك الغرائب ، قد
يحدث فى زمن طويل ممتد ، وهذا تنبيه من الحق تعالى على أن
الزمن ليس شرطاً متوقفاً عليه التكوين توقفاً لازماً عقلاً ، بل أن
ذلك الزمن لم يجعل ظرفاً للتكوين إلا عادة جرت للحق تعالى من
غير احتياج إليه . والا فلو احتيج إليه لكان الشيء الأغرب
فى الصنعة أطول زمناً من الشيء الذى يكون دونه فى الغرابة

وبما تقرر : ظهر أن الله تعالى الذى أحدث هذه الكائنات
قادر على إحداثها بدون تلك الشروط والأسباب والأزمنة الموضوعة
لتكونها : فيجوز أن يوجد الله تعالى نباتاً فى لحظة طرف أو أقل بدون
تلك الأسباب التى جرت عادته أن يحدث النبات عندها ، وقادر
على إيجاد حيوان كذلك ، وعلى قلب الجراد نباتاً ، أو حيواناً فى لحظة
طرف ، وإحداث أعظم من ذلك من خوارق العادات ، ولكن
ذلك منه سبحانه لم يكن مطرداً ، بل قد يجريه على يد رسول من
رسله معجزة مصدقة له بدعوى الرسالة ، كما قاب عصا سيدنا موسى
عليه الصلاة والسلام نعباناً ثم أعادها عصا فى زمن يسير ؛ وهكذا
توجيه جميع خوارق العادات التى نقل أنا وقوعها معجزات للرسول

عليهم الصلاة والسلام جرت على أيديهم تصديقا لهم : مثل انفلاق البحر ، وانشقاق القمر ، وكلام العجاوات ، ومجىء عرش بلقيس في لحظة طرف ، وبعد ذلك كله فانك ترى بعض من استولت الغفلة على قلوبهم قد سترت عنهم عظمة مصنوعات الله تعالى المعتادة لديهم وغرابتها لكثرة مشاهدتهم لها ، ويعجبون من حدوث شيء نادر الوقوع لم تجر العادة في برونه لدى حواسهم ، وربما يكون هذا الشيء في العظمة ، ودقة الصنعة : دون ما جرت العادة بحصوله وألفته أنفسهم ، وما ذلك إلا لعدم اعتيادهم على مشاهدة ما ندر وقوعه حتى ربما كذبوا من يخبرهم به أشد التكذيب وان كان ثقة عندهم ، مثلاً : تراهم يعلمون أن التراب ينقلب نباتاً ، ثم غذاء ، ثم دماً ، ثم نطفة ، ثم بعد انتقاله لرحم الأنثى ينقلب علقة : ثم قطعة لحم ، ثم تتصور حيواناً سمياً بصيراً شاماً ذائلاً لأمسا ، ثم يخرج من بطن الأنثى : ضعيف العقل والقوى ، ثم يصير قوياً صلباً وليبياً حاذقاً عالماً مدققاً ويقول أنا وأنا ، وما جسده إلا قبضة تراب وسيعود كما كان ومع ذلك : لا يعجبون من جميع ما جرى في هذه التحولات والاطوار ؟ وإذا أخبرهم مخبر أن فلاناً الرجل الصالح قد شفى الله تعالى فلاناً المبتلى البرص على يديه بمجرد أنه لمسه ودعاه : تعجبهم قد عدوا ذلك من المحال ، وحسبوا الخبر به من خرافات الأقوال ، ولو كان الخبر من أصدق الرجال ، والمحال أن شفاء ذلك البرص على ذلك الوجه ليس بأعظم من تأمين الإنسان

بتلك الاطوار العجيبة بل دونه في العظمة بكثير . وليس الفرق بين الامرين إلا أن الأول قد جرت به العادة والثاني ليس كذلك، ولكن مادمنّا نعتقد أن الموجد لكلا الأمرين هو الله القادر العليم الفاعل المختار فأى داع يدعو للاذعان بالاول والانكار للثاني؟ نعم لو أن الدعوى أن ذلك الرجل الصالح قد أوجد شفاء البرص بقدرته كان للانكار وجه ، وذلك لعدم صلاحية قدرته لاجداث هذا الشفاء ولكن الدعوى : أن الله تعالى قد شفى البرص على يديه كرامة أكرمه بها فلا وجه للانكار ما دام المخبر صادقاً موثقاً به ونسب ذلك التأثير لله تعالى الذي هو قادر على كل جائز وهذا الأمر كان من الجائزات اذا احط علما بجميع ما قررناه : فاعلم أن الله تعالى لما أرسل الرسل للخلق أيدهم بالمعجزات لتكون دليلاً صدقهم في دعواهم الرسالة: والمعجزة هي أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعى الرسالة من الله تعالى ، فالرسول عند ما يدعو القوم الذين أرسل اليهم الى تصديقه وامثال التشرع الذي يبايعهم إياه عن الله تعالى لا بد أنهم يريدون منه دليلاً على صدق دعواه فيقترحون عليه خرق العادة في الأمر الفلاني والأمر الفلاني : من نحو انشقاق القمر، وخروج ناقة من الصخر، وغير ذلك فالله سبحانه وتعالى يخرق العادة على يد ذلك الرسول ويوجد ما تدعيه به أوائل القوم ، وحينئذ : يظهر لهم صدقه في دعواه . فيؤمنون به من عند الله تعالى : لأنهم يلزمهم أن يقولوا حينئذ

فى الاستدلال : ان هذا الامر الخارق للعادة لا يقدر على ابرازه للوجود
إلا الاله القادر عليه ولولا أن ذلك الرجل المدعى الرسالة صادق
لما أبرز الله تعالى على يديه ذلك الامر الغريب ، فابرازه على يديه
تصديق له من جانب الله تعالى بلا ريب : فالمعجزة تكون فى حق
ذلك الرسول وفى حق قومه بمنزلة قول الله تعالى « صدق عيسى
فى كل ما يبلغه عنى » ونظير ذلك فى رجل ادعى فى حضرة ملك أنه
سفير بينه وبين رعيته الحاضرين فى حضرة الملك وعليهم أن يصدقوه
فيما يبلغهم عن ملكهم ، فطلب منه أولئك الرعايا ما يدل على تصديق
الملك له فى تلك الدعوى فقال : ان علامة تصديق الملك لي فى ذلك أنه
يقوم الآن عن كرسيه ويخطو سبع خطوات ويفعل ذلك ثلاث مرات
على خلاف عادته ، فبمجرد سماع الملك ذلك قام عن كرسيه وفعل مثل
ما قال الرجل ، فلا شك أن القوم الحاضرين يحجزون حينئذ بصدق
ذلك الرجل ، ويعدون قيام الملك بتلك الكيفية تصديقا له . فيعتمدون
جميع ما يبلغهم ذلك الرجل عن ملكهم . ومن يقل بخلاف هذا فهو
من الحق بمكان ، أو مكبل بقيود العناد والخسرن . واذا بلغنا الى
ههنا فنقول : —

إن المعجزات التى أظهرها الله تعالى على أيدي الرسل الكرام
عليهم الصلاة والسلام هى كثيرة جدا ، فنذكر منها ما اشتهر ،
وذكر فى القرآن المجيد ، أو فى صحيح الأسانيد النبوية . ونذكر

توجيه حصول تلك المعجزات على قانون العقل السليم حتى تندفع شبه المبطلين المكارين لها من أهل الضلال ، ويزداد بذلك يقين أهل الحق . بابة الإيمان ، ولكن بعد أن نتكلم على أشهر المعجزات المذكورة في القرآن لبعض الرسل نفرد فصلا لمعجزات نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونتكلم على بعض الطرق التي أوصلت اتباعه الى المحظوة بتصديقه ، واتباع طريقه فنقول : —

من المعجزات التي ذكرت في القرآن الشريف ، معجزة سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بانفلاق البحر حين غربه ! جاءه حتى مر بنو اسرائيل فيه ونجوا من فرعون ، ثم أهلك الله تعالى فرعون وقومه بانطباق البحر عليهم عند ما أرادوا لحوق موسى وقومه ، فاعلم أن من بلغه خبر هذه المعجزة إن كان منكرها لوجود إله العالم — والعايا بالله تعالى — فهذا يكون الصواب في حقه أن يقام له الدلائل على اثبات وجوده تعالى ، واثبات صفاته الجليلة ، ثم بعد ذلك يبين له حال المعجزات ، وإن كان مؤمنا بوجود الخالق سبحانه فمضى تصور عظمة قدرته ، وتأمل في عظام أعماله ، وتصور أن انفلاق البحر ما هو الا جائز عقلي من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، لأن العقل يحكم بقبوله لا بثبوت والانتفاء ولا بانزاع من ثبوته محال ، فلا مانع يمنعه من التصديق بذلك ، ومما يوضح جواز انفلاق البحر أن الماء قابل الانقسام كبقية الأجسام .

وقابل للتماسك كما يشاهد تماسكه بالجمود بالبرد مثل ما يرى في الأنهر
العظيمة التي تجمد أيام البرد وتقر عليها الحيوانات ، وإن كان انفلاق
وتماسك ماء البحر بتلك السرعة حتى مر بنو إسرائيل بين قطعه ثم
رجوعه إلى السيلان سريعاً حتى غرق فيه فرعون وقومه أمورا
عظيمة تحتاج إلى قدرة تامة ، فالله سبحانه وتعالى تام القدرة فلا يعجزه
ذلك ، فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بهذه المعجزة القرآن الكريم
على لسان رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي ثبت
صدقه لدينا بالبراهين العديدة ، وهي من الجائزات العقلية الداخلة
تحت تصرف قدرة الله تعالى النامة آمنة وصدفها بذلك من دون شك
ولا ريب ، وكل منصف إذا تأملها لا يجدها من المحالات . والله قادر
على أحداثها تأييداً لرسوله ، وحفظاً لعباده المؤمنين ، وإهلاكا لأعدائه
الكافرين

ومن المعجزات التي ذكرت في القرآن المجيد أيضاً سيدنا
موسى عليه السلام نبع الماء من الحجر عندما ضربه بعصاه بأمر الله
تعالى ففعل : كان حجراً مخصوصاً ، وفيل المراد أي حجر كان . وهذه
يقال أيضاً : أن من بلغه - بهذه - أو كان منكراً للخائق تعالى
فقد ذكرنا ما هو الصواب في حقه ، وإن كان مؤمناً بوجود الخائق
تعالى وتمام قدرته ، وعظيم أعماله . فيلغيه بتسديق هذا الأمر
يتصور : أن نبع الماء من الحجر . سرياً . لا أن نبع الماء

تعالى يخلق ويبرز من العدم مقداراً من الماء يكفى بنى اسرائيل ثم يجعل سبيل بروزه فى مشاهدتهم من الحجر عند ما يضربه موسى . والثانى أن يحول الله تعالى الهواء ماء ، ويجعل سبيل بروزه فى المشاهدة أيضا من الحجر ، وتحول الهواء ماء وعكسه هو من الأمور الجائزة التى دخلت تحت تصرف قدرة الكيماويين ، كما يعلم من فن الكيمياء ، وفى هذا العام قدروا أن يحولوا الهواء سائلا من السائلات فما بالك بقدرة من خلق الكيماويين وجميع أعمالهم ؟ فنحن معشر المسلمين لما أخبرنا بذلك الصادق ، ورأينا أن ذلك من الجائزات الداخلة تحت تصرف القادر سبحانه آمنا وصدقنا به ؛ وبأن الله تعالى أوجده معجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، وابقاء لحياة عباده بنى اسرائيل الذين أعوزهم الماء فى التيه

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام المذكورة فى القرآن الشريف : انقلاب عصاه ثعبانا كبيرا ابتلع الحبال والعصى الكثيرة التى سحرتها سحرة فرعون ، وخيلتها للناس حيات ، فهذه المعجزة أيضا يقال فيها : ان السامع بها إن لم يكن مؤمنا بالخالق تعالى ، وبعظيم قدرته ، فقد تقدم ما هو الصواب فى حقه ، وان كان مؤمنا بالخالق تعالى فيكفيه لتجوز وقوع هذه المعجزة تصوره أن مصنوعاته تعالى العظيمة : من عوالم النبات ، والحيوان كلها حدثت بقدرته وتكوينه ، بقدر حول موادها من صورة إلى صورة ، فقلب التراب نباتا ،

والنبات حيوانا ، وأن الأسباب التي جعلها في هذا الكون لحدوث هذه الكائنات والأزمنة التي جعلها ظروف الحدوثها ماهي إلا عادية والله تعالى قادر على تلك الأعمال بدون تلك الأسباب ، وبدون تلك الأزمنة ، وأن الله تعالى قادر على إعدام الأجسام أو تفريقها هباء لا تدركه الأبصار . فنحن معشر الأمة المحمدية لما أخبرنا الصادق بحصول تلك المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، ونحن نعتقد بكمال قدرة الله تعالى عليها ، وعلى أعظم منها من الجائزات آمننا وصدقنا بها وقلنا : لا مانع من أن الله تعالى قلب تلك العصا التي هي جسم نباتي ثعبانا عظيما وكبر جسمه بضم بعض الأجسام الأرضية إليه ، وبعد أن ابتلع الحبال والعصي أعاده عصا بقدر ما كانت وأقني الأجسام التي زادها في تكبيره وأجسام الحبال والعصى التي ابتلعها . أو فرق جميع ذلك وصيرها هباء لا يرى ، وكل ذلك أو جده الله تعالى بدون الأسباب والأزمنة العادية التي شرعها في الكون لذلك الصنع إذ هو قادر على ذلك ، وكان خرق العادة في هذا الحال معجزة دالة على صدق رسوله موسى عليه الصلاة والسلام

ومن معجزات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التي أخبر بها القرآن المجيد رفع الطور وهو الجبل فوق بني إسرائيل حتى قبلوا اليشاق ، وهذه المعجزة يسلم بجزائ وقوعها من يؤمن بوجود لاله لتادر ، ويتأمل في أعماله العجيبة وأنك كما رفع من جبرام مذنبه جدا

وأقامها في الفراغ ، وإن قيل على مذهب المتأخرين من الفلكيين :
ان تلك الأجرام قائمة في الفراغ بناموس الجاذبية قلنا : ان من أوجد
ذلك الناموس هو قادر على إحداث ناموس نظيره لرفع الطور ،
على أن الأسباب التي وضعها سبحانه وتعالى في هذا الكون ماهي
إلا عادية — على ما تقدم بيانه : فهو قادر سبحانه على إيجاد هذه
الكائنات بدون وجود أسبابها ، فنحن ممشر المصدقين بالقرآن
الكريم قد أخبرنا بهذه المعجزة الصادق ، وهي من الجائزات العقلية
الداخلية تحت تصرف القادر الذي نؤمن بوجوده وبكمال قدرته فنؤمن
ونصدق بمحصولها بتمدرة الله تعالى بمعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ،
وترهيبا لبني اسرائيل حتى قبلوا الميثاق

ومن معجزات سيدنا موسى عليه السلام ارسال الجراد والقمل
والضفادع ، والدم ، على قوم فرعون ، وانزال المن والسلوى على بني
اسرائيل في التيه ، وهذه الأشياء يؤمن بجواز وقوعها من يؤمن بالله
تعالى القادر على هذه الأمور وأعظم منها ، وتوضيح جوازها : أنه
يشاهد إلى الآن في هذا الكون ارسال الجراد وغيره من الحيوانات
المؤذية : كالديدان ، والفيروسات على زرع قوم دون قوم ، ويشاهد أن
بعض الأقاليم يفسد ماؤها ويورث شربه أمراضا لأهلها ، وبعد
البحث عن سببه يظهر أنه قد تولد في ذلك الماء حيوانات صغيرة جدا

لا تدرك إلا بالمكبرات ، ولعل الدم كان من هذا القليل ، ويشاهد أيضا أنه قد يقع عوض المطر أشياء لم يعتد وقوعها ويعال وقوعها أهل البحث بأن ريحا نقلتها من مكان آخر وأنزلتها على آخرين ، فما دام الحال أن جميع تلك الأشياء من الجائزات عقلا المشاهد نظيرها في أيامنا فما المانع من أن الاله سبحانه أوجدها على يد موسى عليه السلام معجزة له ، وترهيبا للقطب أعدائه ، ورزقا لبني اسرائيل الذين كانوا في التيه يعوزهم القوت ، فتفضل عليهم تعالى بالمن والسلوى ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بحصول جميع تلك الجائزات على يد موسى عليه السلام بخلق الله تعالى معجزة له كما أخبرنا بذلك الصادق

ومن المعجزات التي ذكرها القرآن الشريف خروج ناقة من صخرة على يد سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام عند ما طلب منه قومه ذلك حتى يؤمنوا به ، فمن يسمع هذا الخبر ويكون مصدقا بوجود الاله القادر يكفيه للتصديق بجواز ذلك أن يتصور عجائب صنعه تعالى وأنه قادر على قلب التراب حيوانا ، وتحويل المواد الى صور مختلفة ، اذ لا مانع من أن الله تعالى صور قطعة من نفس مادة تلك الصخرة من باطنها بصورة ناقة ، وقامها للحيوانية بصورة النبق . . . جعلها حية حساسة ، ثم فلق الصخرة عنها وأخرجها نفوس صالح معجزة له عليه السلام ، فان الاسباب ولازمة التي جعلها عادته سبحانه في الخلق الحيوانات ماهي الاعادية . وهو قادر على إيجاد الخيرات كلها

وكم يوجد في باطن الصخور حيوانات مثل الدود لا يدري الباحثون كيف تخلقت داخل الصخر؟ ويوجد حولها نبات دقيق : مثل العفن الذي يظهر على الحيطان الرطبة تتغذى به وكلما رعته نبت غيره ، وقد شوهد ذلك ونقله الشقاة ، فما دام هذا جائزا في مثل هذه الحيوانات فهو جائز في مثل الناقة ؛ اذ لا فرق الا بالكبر والصغر ، وهو لا يفيد الاستحالة في الكبير دون الصغير . فنحن معشر المؤمنين نعتقد بحصول تلك المعجزة ، لانها من الجائزات الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وقد أخبر بها الصادق ، فهي : حق وصدق بلا ريب

ومن المعجزات التي أخبر بها القرآن المجيد عدم احتراق سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بالنار العظيمة التي ألقاه فيها الملك الكافر الذي حابه ابراهيم عليه السلام ، فمن يكن مؤمنا بوجود الاله القادر ويعتقد أن النار لا تحرق بطبيعتها ، ولا بقوة أودعت فيها ، بل احراقها هو بخلق الله تعالى ، وعدم احراقها من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف الاله سبحانه ، وان كان ذلك خلاف العادة ، فلا مانع بمنعه من تجويز وقوع هذه المعجزة ، ومن ينكر وجود الخالق تعالى ، ويعتقد أن النار تحرق بطبيعتها فهذا يكون الصواب في حقه أن يقدم له أولا الدلائل الدالة على وجود الاله سبحانه ، وعلى قدرته على كل الجائزات ويوضح له أن النار ليست بحرفة بطبيعتها بل بخلق الله تعالى الاحراق عنده آتس شيئا قابلا للاحتراق ، اذ لا يوجد في نفس حقيقة انها يقتضي

أن تحرق الاجسام ، لانه ان قيل : إن موجب احراقها هو النور الذى فيها وهو مولد الحرارة المحرقة قلنا : هذا نور الحباحب ، وهو الحيوان الصغير الذى يوجد فى الليل على النباتات وفى مؤخره نور يسطم ، والمادة التى ينبعث منها ذلك النور مادة حيوانية فسفورية لاجل الحرارة فيها ولا احراق ، وكذلك كثير من المواد الفسفورية كما يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق فى النار هو اتحاد العناصر الذى تتكون النار بسببه على زعم الكيماويين المتأخرين قلنا : نطلب البيان الكافى ، لم كان هذا الاتحاد موجبا للاحراق دون جميع الاتحادات التى تحصل بين العناصر والاجسام الكيماوية ؟ كما يعلم من فن الكيمياء ، وان قيل : ان موجب الاحراق هو الحركة المخصوصة للاجزاء الفردة للجسم مع الاجزاء الفردة للأوكسجين أحد جزئى الهواء كما يقول أيضا المتأخرون من الكيماويين ، قلنا : نطلب التوضيح الشافى ، لم كانت هذه الحركة موجبة للاحراق دون جميع الحركات التى تحصل بين أجزاء الاجسام المتحدة على قول أولئك الكيماويين ؟ ولم لم تكن حركة أجزاء الجسم الذى تنشأ عنه البرودة المفرطة حتى يجمد بها الماء موجبة للاحراق ؟ ولم خصت الحركة الأولى بالحرارة والاحراق والحركة الثانية بالبرودة والتجميد ؟ فبهذا يظهر أن الخصم لا يسهه الا أن يقول : لا أدري لا أن كلا قد خص بما ينشأ عنه ولا بد من مخصص فنقول له : نحن نعلم ذلك

المخصص : هو الله تعالى الذى خص ما شاء بما شاء ، فاحراق النار ليس الا بخلقه وإيجاده ، وليس فى النار شىء يقتضى أن يؤثر بالاحراق ولا بسواه بل هى مسخرة تحت تصرفه سبحانه وتعالى ، إن شاء أنشا عنها الاحراق والاعدام ، وإن شاء أنشا عنها البرودة والسلام : نعم قد جرت عادته سبحانه فى هذا الكون أنه جعلها محرقة بخلقه وإيجاده فإذا أراد خرق العادة بعدم خلق احراق فيها فلا مانع يمنعه ولا حرج عليه ، وقد أشار سبحانه الى خرق العادة فيها معجزة لسيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بما تلاه علينا فى القرآن المجيد : من قوله فى خطاب النار : « يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم » وهذا كناية عن أنه تعالى لم يخلق فيها الحرارة والاحراق بل خلق ضد الحرارة فيها وهو البرودة وجعلها سلاماً وأماناً لبرودة مهلكة ، فنحن معشر المؤمنين لما أخبرنا الصادق المصدوق بهذه المعجزة آمنة وصدقنا بحصولها ، ولا مانع يمنع من تصديقها ، وهى من جملة الجائزات الداخلة تحت تصرف خالق الارض والسموات

ومن المعجزات التى ذكرت فى القرآن الشريف ما جرى على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من شفاء الابرص ، والاكمه ، وإحياء الموتى : باذن الله تعالى : فمن كان مؤمناً بالله العالم سبحانه ، وتصور عجائب أعماله : من تحويل التراب الى حيوانات متنوعة لا يمتنع من تجويز إحياء الموتى بقدرته تعالى ، وشفاء المرضى ، وإبراء الاكمه

معجزة لسيدنا عيسى عليه السلام ؛ فان هذه المذكورات من الجائزات العقلية ، وهى فى نظر العقل أسهل من خلق الحيوان من التراب ، وبراذه سميعا بصيرا ، وان كان كلا الأمرين لدى قدرة الله تعالى على حد سواء ، اذ لا يقال فى حقه تعالى : إن الشئ الفلانى سهل والشئ الفلانى أسهل عليه بل : الجميع تحت تصرفه بالسوية ، والوسائط التى جعلت أسبابا فى حدوث مثل هذه المذكورات ماهى إلا عادية ، وكذلك الزمان الذى جعل ظرفا لحدوثها ، والله تعالى قادر على خرق العادة وإيجاد هذه الأمور بدون تلك الأسباب والزمان- كما مر بيانه ، فنحن معشر الموحدين قد أخبرنا الصادق بهذه المعجزات وحصولها على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فأمنّا بها وصدقنا

ومن المعجزات التى ذكرها القرآن الكريم ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام أيضا تصويره من الطين : كهيئة الطير ونفخه فيه فيصير طيرا باذن الله تعالى ، فإدما نعتقد أن الله تعالى هو الذى خلق جميع هذه الحيوانات الموجودة فى الدنيا على تنوع أنواعها من التراب ، وأن الأسباب التى وضعها لكونها ، والزمن الذى جعله ظرفا لتصورها كل ذلك أمر عادى . والله تعالى قادر على إيجاد ذلك بدون تلك الأسباب وذلك الزمان ، فلا مانع يمنعنا من تجويز وقوع تلك المعجزة الخارقة على يد سيدنا عيسى عليه السلام بخلق الله

تعالى كما قال سيدنا عيسى عليه السلام «بإذن الله» وحيث قد أخبرنا بذلك الصادق المصدوق فقد آمنا وصدقنا بحصوله معجزة مؤيدة لدعوى ذلك الرسول الكريم

ومن المعجزات الذى أخبر بها القرآن الشريف ، وجرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام نزول مائدة من السماء لياكل منها أصحابه الحواريون رضى الله تعالى عنهم ، وذلك أمر جائز ؛ اذ لا مانع يمنع العقل من التصديق بنزول أى جسم كان من جهة السماء كما نرى الأمطار وبعض أجسام أخرى تجبر بها علماء الارصاد ، وما دمتنا نعتقد بقدرة الله تعالى على خلق جميع الأجسام . فالله سبحانه وتعالى قادر على خرق العادة ، وخلق المائدة وانزالها من السماء على سيدنا عيسى عليه السلام وأصحابه معجزة له وتأيداً لدعواه ونحن آمنا بوقوعها لأخبار الصادق بها

ومن المعجزات المذكورة فى القرآن الكريم تسخير الشياطين والريح لسيامان ، وإلانة الحديد لداود عليهما الصلاة والسلام ، فكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا يحكم العقل باستحالتها داخله تحت تصرف الاله القادر فالشياطين من جملة عبيد الله تعالى قابلون للتسخير . مقهورون تحت أمر خالقهم سبحانه ، والريح انما تسييرها وتصريفها فى الاكوان بقدرته عز وجل ، والحديد معدن قابل للإلانة وان جرت عادة الله تعالى فى إلانته بسبب الحرارة ولكن ذلك سبب عادى

والله قادر على إلاته بدون ذلك السبب ، فلا مانع من إيجاد الله تعالى لهذه الخوارق على يد هذين الرسولين الكريمين معجزة لهما ، وتأييدا لدعواهما الرسالة ، ونحن معشر أهل الايمان المصدقين بقدرة الله تعالى العظيم الشأن ، وبجواز هذه الحادثات ، وبصدق القرآن المجيد قد آمننا وصدقنا بحصولها بدون شك ولا ريب وهي بالنسبة لأعمال الله تعالى المشتعلة على أعجب العجائب وأغرب الغرائب لا يستبعد العقل السليم منها شيئا ، والله الهادى الى سواء السبيل

وبقيت معجزات لارسل عليهم الصلاة والسلام سنذكر بعضها من مشهورها فى الفصل الآتى لمناسبة بينها وبين معجزات سيدنا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام

الفصل الثالث

فى بيان معجزات نبينا سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وبيان بعض الطرق التى كانت برهاناً على صدق دعواه

من أعظم المعجزات التى جاء بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام
القرآن الشريف ، فهو المعجزة الباقية إلى انقضاء الدنيا ، بخلاف بقية
المعجزات فان كلامها قد انقضى بحينه ، ولشرح هذه المعجزة العظيمة ،
والخارقة الجسيمة على وجه يفهمه الخاص والعام ، ولا يعتبره شبهة
لدى الافهام ، فاعلم أن من حكمة الله تعالى البالغة أنه قد يؤيد رسله
بمعجزات من قبيل ما فاق وبرع فيه القوم المرسل اليهم حتى تنقطع
حجتهم عن رسولهم : باننا نجهل جنس ما جئت به من خارق العادة
فلعلك تعلم طريقاً فى ايجاده لانعامها نحن ولا يكون فى الحقيقة إلا
أمراً معتاداً : مثلاً عند ما أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام :
كان فن السحر شائعاً فى القبط قوم فرعون ، ولهم فيه المهارة التامة ،
ويعلمون ما هو الممكن للبشر معرفته وصنعه منه وما لا يكون
فى طوقهم ، فلما سحر السحرة منهم الحبال والعصى بأمر فرعون ،
وصارت ترى حيات تسعى ألقى سيدنا موسى عليه السلام عصاه
بأذن الله تعالى فقلبها الله تعالى ثعباناً عظيماً فابتلعت تلك الحيات الكثيرة ،

ثم لما أخذها بيده عادت عصا كما كانت ، فخر السحرة ساجدين لله تعالى ،
وآمنوا برسالة موسى ، وصبروا على تعذيب فرعون لهم وقتلهم بالصلب
في جذوع النخل ، وما ذلك إلا أنهم - لمعرفتهم فن السحر ، وعلمهم
بمقدار ما يدخل منه في طوق البشر وما لا يدخل : أيقنوا أن تلك
الحارقة وهي انقلاب العصا ثعبانا كبيرا ابتلع الكثير من الحبال والعصى
المسحورة على صورة الحيات ثم عاد عصا كما كان ، وتلك الحبال
والعصى عدمت وتلاشت من الوجود ، ما هي من نوع السحر ، وليس
في طوق البشر الوصول إلى هذه الدرجة منه فآمنوا بانها من خوارق
العادات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسماوات ، اوجدوها معجزة
لموسى مؤيدة لدعواه الرسالة ، ومن لم يكن من أهل المعرفة في فن السحر
يمكنه الاستدلال على صدق سيدنا موسى عليه السلام بسبب تصديق
أولئك السحرة له بأن يقول : إن هؤلاء السحرة لاشك أنهم متمسكون
بدين آبائهم وأجدادهم ، و متميزون بسلطنة فرعون ، ويخافون من
مخالفته الهلاك ، ثم لهم الدراية في فن السحر وبمقدار ما يدخل في طوق
البشر منه وما لا يدخل ، فلو لا أنهم علموا يقينا أن تلك الحارقة التي
ظهرت على يد موسى ليست من نوع السحر ولا يدخل في طوق
البشر الوصول اليها لما آمنوا بموسى ، وتركوا دينهم ودين آبائهم . وزهدوا
في عزة فرعون ، ورضوا بالتعذيب والصلب في جزوع النخل . فقالوا
أمرعون : « فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » . فآمنهم

بموسى مع ذلك كله أعظم دليل على صدقه بدعوى الرسالة ، وأن تلك الحارقة أظهرها الله تعالى على يده معجزة شاهدة بصدقه ، وأما من لم يرد الله تعالى فيه خيرا كما وقع لفرعون فإنه ضل عن هذا الاستدلال واتبع طريق الشبهة ، وقال للسحرة : « انه » يعنى موسى (كبيركم الذى علمكم السحر » وهى شبهة باطلة ، إذ لا يخفى أن موسى من بنى اسرائيل الذين كانوا مستعبدين للاقباط قوم السحرة أصحاب السلطنة والملك فلا داعى يدعو أولئك السحرة إلى مخالفة فرعون باتباع موسى ، ولو فرض أنه هو الذى علمهم السحر كما قال فرعون أصدق العقل أنهم يقدمون على ذلك لمجرد تعلمهم منه ، ويقبلون الذلة بعد العز ، والقتل والصلب عوض الحياة ، وهم عقلاء يميزون الخير من الشر ؟ فلولا اعتقادهم الجازم بأن تلك المعجزة ليست من نوع السحر ، وهى دالة على صدق موسى فى دعوى الرسالة ، وانهم وان فارقوا عز الدنيا وعدموا حياتها الفانية ، فسيعوضون بعز الآخرة وحياتها الأبدية ، لما أقدموا ذلك الاقدام ، وقبلوا ما قبلوا : فشبهة فرعون أضعف من بيت العنكبوت ، وقد جاء بها : إما تكبرا وعنادا ، وإما جهلا وشقاء ، وكذلك لما بعث الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كان فن الطب شائعا فى بنى اسرائيل ، فكان من حكمته تعالى أن جعل الكثير من معجزاته عليه السلام من قبيل أعمال أهل الطب ، فأبرأ على يديه الأبرص ، والأكمه ، وأحيا الموتى ، فأهل المعرفة فى علم

الطب لا يحتاجون في تصديق رسالته إلى أمر صعب ، بل من الواضح لديهم أن يقولوا: إننا نعلم أن فن الطب ومقدار ما يمكن الإنسان أن يبلغه فيه من الأعمال وما لا يمكنه: فيدخل في طاقة الأطباء الخذاق أن يشفوا الأبرص، لكنه بمعالجة مخصوصة مع مرور زمان مخصوص، وأما شفاؤه في الحال بمجرد لمسه ، أو الدعاء له فهذا : ليس في طوقهم، ويمكنهم أن يشفوا مرض الأعين الذي يكون عرضيا ليس مخلا بجوهر البصر ، وأما شفاء الأكمه عديم البصر : فهذا ليس في طوقهم ، وأحياء الموتى أيضا : ليس في طوقهم ألبتة ، وحيث إن عيسى قد أتى بهذه الخوارق التي ليست داخلية في طوق البشر كما يظهر لنا من الاطلاع على فن الطب فيكون ذلك دليلا على صدق دعواه الرسالة ، إذ أن تلك الخوارق ليست إلا بإيجاد الله تعالى القادر على كل شيء ، أجراها على يد عيسى معجزة له مؤيدة دعواه ، وأما خير أهل المعرفة في فن الطب فلم أن يستدلوا على صدق عيسى بتصديق هؤلاء الأطباء : فظير ما استدل من آمن بموسى ولم يكن من أهل المعرفة في فن السحر ، لما شاهدوا إيمان السحرة به

إذا علمت جميع ما قررناه: فاعلم أنه قد نقل إلينا بالموثر المفيد لليقين، أي نقل إلينا الجماهير الكثيرة الذين لا يحصى عددهم، ويحيل العقل وأطوارهم على الكذب، كالحالته متلا تواطز الناس جميعا على الأخبار بوجود مكة والحال أنها غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذبات. وهم جرائد

الجاهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوا سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ورأوه رأى العين ، وأحاطوا بأحواله وبما جرى له في مدة حياته مع الأئمة ، حتى تم له تصديق الألوف من أتباعه بكل ما جاء به أنه بعد ماضى له من العمر أربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق والامانة حتى دعوه « محمدا الأمين » ولم يجر له في تلك المدة تعلم القراءة والكتابة ، ولم يجتمع مع أهل هاتين الصنعتين اجتماعا يمكنه معه أن يتعلمهما منهما ، ويؤهله ذلك لاكتساب جملة معارف الأئمة ، وشرائع الاقدمين ، وقوانين الممالك ، ولم يعثر عليه في تلك المدة أنه كان يعانى شيئا من ذلك ، وكذلك لم يجر له في تلك المدة ممارسة صناعة الفصاحة والبلاغة ، فلم يكن له عناية بالشعار ، والخطب ، والرسائل العربية : لا قولاً ولا رواية ، ولم يكن مولعا بمحاورة الفصحاء ، ومغالبة البلغاء . من كل ما يقوى فيه ملكة تينك الصنعتين الشريفتين ، ويؤهله الى بلوغ الدرجة القصوى فيهما : قام بين جماهير العالم من عرب وعجم ، مع قلة ذات يده ، وفقد الناصر والمعين : وليس في آبائه سبق سلطنة قد زالت فيظن به انه يريد استردادها بالتحيل على الرياسة ، فادعى أن الله تعالى قد أرسله الى الناس كافة ليلبغهم ما شرعه لهم : متكفلا بنجاحهم في الدنيا والآخرة ، وأن هذا الترع يناسب زمانه الذى أرسل فيه الى مضى هذه الدنيا ، وهو ناسخ لكثير من أحكام شرائع الرسل الذين رسلوا قبله في الزمان الماضى الذى كانت تلك الاحكام المنسوخة

تناسبه ، وانه ينهائهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرّة بصالحهم ، ورثوها عن آبائهم ، أو زينها لهم الشيطان ، وأقبح شئ منها عبادة الأوثان ، والنيران ، والأحجار ، والأشجار ، وأنه يأمرهم بتوحيد الله تعالى ، واعتقاد اتصافه بصفات السجّال ، وتنزهه عن صفات النقصان ، وإفراذه تعالى بالعبادة ، وأداء شكره على نعمه التي أنعمها عليهم ، وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم : كخضوعهم له في الصلوات الناشئ عنه تهذيب نفوسهم ، ووصلتهم مع خالقهم : وزيارتهم الامكنة التي وعدهم عندها غفران السيئات ، الى غير ذلك من كل ما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، فعند ما سمع منه أولئك الجماهير هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ، وتحول له الأوداء أعداء والموافقون أخصاما ألداء ، ثم أخذوا في مجادلته ومخاصمته ، وجرحهم منهج المجادلة إلى طلب الحجة : وصار كل منهم يطلب منه برهانا على صدق دعواه . ويتمحل له التعجيز في كل ما يهواه ، وهو صلى الله عليه وسلم ينصب لهم الدلائل ، ويجيب منهم كل سائل

ومن أعظم الحجج التي استند في انبات دعواه اليها ، وجعل معظم اعتماده عليها . ابلاؤه عليهم من مجموع كلامه عربي يسميه « قرآن » ويقول : إنه من عند الله تعالى أرسله به اليهم ، . . . مشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى الى الناس كافة . . . صادقة في كل

ما يبلغه عنه تعالى وهو متكفل ببيان الشرع الذي شرعه الله تعالى لهم ، وأنه يتجدهم بأقصر جملة منه يسميها سورة بمعنى أنه يستدل على أنه من عند الله تعالى بـمجز فصحاء أهل اللسان العربي وبلغائه عن الاتيان بما يساوي أقصر سورة منه : بفصاحتها وبلاغتها ، وقد كان في الامة العربية أمراء الفصاحة والبلاغة العربيتين الرائج في ذلك الزمان سوقهما بين أهل تلك الامة ، فكانتا أعظم علومهم ، وأكرم مفاخرهم ، وهم أكثر الناس شاعرا وخطيبا ، وفيهم العالمون بأساليبهما ، الحاملون أعلامهما ، والمحيطون بأسرارهما ، وبما هو في طوق البشر من مراتبهما وبما ليس في طوقهم : ولم يزل صلى الله تعالى عليه وسلم يصنفهم بالضعف والقصور عن معارضة أقصر سورة من ذلك القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، منوها بذلك في كل محفل ، مشهرا له في كل جحفل ، ومع ذلك يسفه أفعالهم في عاداتهم وعباداتهم ، ويطعن في معبوداتهم التي عبدوها بضلالاتهم ، فأخذ علماء الفصاحة والبلاغة منهم وأمرأؤها بينهم يتأملون في ذلك القرآن ، ويسبرونه بمسبار النبان . ويتدبرونه تدبر الناقد البصير عسى أن يتبين لهم طريق أمارضه ، رابطال حجته ، فلا وربك ما وجدوا ولن يوجد ، الآن إلى انقضاء الزمان ، مع وفور المصحاء والبلغاء ، المبدء المبدأ ، نقول هذا على رؤوس الاشهاد : والقرآن يبين في هذه آيات ، وهو يتلى في كل ناد ، لكن ظهر لهم أن هذا

القرآن قد بلغ مرتبة في الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية، ولو أن أحدا كابر وعارض لجاء بالغث البارد، وأصبح سخرية عند الصادر والوارد، فتتحقق لديهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه : فأقر من وفقه الله تعالى منهم بمعجزهم بل بمعجز البشر، وبأن ذلك دليل على أنه من عند خالق القوى والقدر، وصدقوا دعوى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة من الله، وتركوا عاداتهم القبيحة، وعباداتهم الباطلة، واعتنقوا ما شرعه الله تعالى لهم واجتبه، ثم ان كثيرا ممن لم يكونوا من أهل الفصاحة والبلاغة : من الامة العربية أو من سواهم من الاعاجم وجد لهم من الاستدلال بمعجزة القرآن على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بدعوى الرسالة : ما يقنع أفكارهم، ويحملهم على اعتناق دينه الشريف، وذلك بان يقولوا : ان محمدا عليه الصلاة والسلام قد قام بدعوى الرسالة فريدا وحيدا، مخالفا لجميع العالم في عاداتهم وعبادتهم : لا ناصر له ولا معين، وقد ادعى عجز فصحاء العرب، وبلغائهم المشهود لهم بكمال الفصاحة والبلاغة عن معارضة أقصر سورة من قرآنه الذي جاء به، وهؤلاء مع تمسكهم بعباداتهم وعباداتهم الموروثة عن آبائهم، والمألوفة من لدى نعومة أظفارهم، ومع تعصبهم لعشيرتهم. وبنى جلدتهم، وليس لدى محمد من حطام الدنيا ما يبعث على رغبتهم في اتباعه، ولا هم صاحب عصبية وقوة تخيفهم من بطشه. لأنه في أول دعواه عاراه

الأهل والأرحام ، بل جميع الأنام ، فقد أقر أولئك الفصحاء البلغاء
بمعجزهم عن معارضة أقصر سورة من قرآنه ، وأن درجة الفصاحة
والبلاغة المحتوى عليها لا تبلغها الطاقة البشرية ، وصدقوا بدعواه الرسالة
من عند الله تعالى ، فلولا أنهم قد تحقق لديهم - على ما عندهم من كمال
المعرفة في فن الفصاحة والبلاغة أنهم عاجزون عن معارضة قرآنه ، وأن
ذلك القرآن لم يكن الا تيان به في طوق البشر ، وهو دليل على أنه
من عند الله تعالى لما آمنوا بمحمد وتركوا عاداتهم وعباداتهم الموروثة
المألوفة ، ولا رغبة هناك لهم في حطام ، ولا خوف من انتقام ، ولا
يخفى : أن أصعب شيء على العاقل مفارقة دينه الذي يرجو به النجاة
في الدنيا والآخرة ، وأصعب شيء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التي
ألفها وتلقاها عن أسلافه ، حتى : ان البعض وان استشعر برداءة
عوائده يصعب عليه مفارقتها ، وتحكم عليه نفسه بملازمتها ، فالعاقل
لا يفارق دينه الا اذا تيقن النجاة في دين سواه ، ولا يهجر عوائده
لا سيما الموروثة المألوفة الا بسبب قوى قاهر ، فحال هؤلاء القوم
الفصحاء البلغاء مع محمد وإيمانهم به على هذا الوجه هو دليل لنا كاف
لنصديقنا إياه فيما ادعاه من الرسالة من عند الله تعالى ، وليس إيمان
عمولاء الفرقة بالتفايد لفرقة الذين هم أهل معرفة بالفصاحة والبلاغة ،
بل إيمانهم بغيره استدلالى - كما هو طاهر ، ولهذا الطريق وأمثاله

كلفت الاعاجم بالايما ن برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام وان لم يعرفوا
لسانه العربى

ثم ليعلم : أن فى القرآن استدلالا على صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى
عليه وسلم فى دعوى الرسالة من طريق غير طريق اشتماله على الفصاحة
والبلاغة اللتين أعجزتا فصحاء العرب وبلغاءهم ، وهو أيضا معجزة من
هذا الوجه : خارقة للعادة لا يمكن البشر الاتيان بها ، وبيان ذلك : أنه
إذا تأمل فيه أهل الخبرة فى نقد الكلام ، ومعرفة الصفات الفاضلة
فيه ، وذوو المعارف والفنون ، والسياسات ، وتدبروا أساليبه ومحتوياته ،
ظهر لهم بالنظر الصادق : أن هذا القرآن قد وجدت فيه خواص
فاضلة ، وصفات كاملة : لا يمكن فى العادة اجتماعها فى مجموع كلام مهما
تأنق فيه واضعه ، واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل ،
وأحوال الأمم فى شؤونها أجمع ، والاحاطة فى جميع الفنون ، والآداب ،
والحكم ، والسياسات ، وتحرى فيه عدم المناقضة والتضارب ، وحسن
الاسلوب ، مع الانفراد عن الاساليب المعهودة عند العرب الا أن
يكون القائل : هو الله تعالى القادر على ذلك كله ، وعلى جمعه فى كلام
يريد جمعه فيه ، وذلك أنهم يجدون هذا القرآن يخبر عن غيوب
مستقبله تأتى طبق أخباره : كوعده أتباع محمد عليه السلام بدخول مكة
آمنين ، فجاء الاثم كذلك ، ويخبر عن قصص الاولين وسير المتقدمين
كما هى حكاية من شاهدها وحضرها . ويخبر عن الضمائر من غير أن

يظهر ذلك من أصحابها بقول أو فعل ، كما يعلم من حوادث حدثت
لبعض أتباع محمد عليه السلام ولبعض أعدائه كما جاء في التفسير ،
وكتب الأحاديث ، وهو مع اتساع مجاله في كل فن : من أخبار ،
وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وأخلاق ، وآداب ، وترغيب وترهيب ،
ومدح الأخيار ، وذم الفجار ، وتحذير من قبائح السجيا ، ومواقع
الدنيا ، وتدبير السياسات ، ومراعاة الأوداء ، ومداغة الأعداء ،
ومجادلة الأخصام ، وتبكيك الطغام ، وإقامة الدلائل على وجود الباري
تعالى وتوحيده ، وعلى الحشر والنشر ، ودفع الشبه ، وإزالة الريب ،
ووصف دار النعيم وأحوال سكانها ، ودار الجحيم وأهوالها ، ووصف
عالم السموات ، وما في العالم العلوي من الآيات : من كواكب ،
وأقطار ، وسحاب ، وبروق ، ورعود ، وعجائب ، ووصف الأرض
وجبالها ، وسهولها ، وبحارها ، ونباتاتها ، وما اشتملت عليه :
من نباتات ، وحيوانات ، ومعادن ، وأزهار ، وأثمار ، وأشجار ،
وأطيار ، وظلمات . وأنوار حتى يصح أن يقال : إنه لم يبق علما
من علوم الأوائل والآخر إلا صرح به أو أشار إليه ، على أساليب
متنوعة ، وطرائق مبتدعة : لم يقع فيه تناقض ، ولم يتخلله تضارب ،
خاليا عن جميع العيوب ، خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب
ليس له من قبله ، ولا من بعده ، ولا من أم يقتدى به ، فلا هو من نوع
القساة السريية ، ولا من الخطب البدوية ، ومع ذلك فهو في القول

مستحسن ، وفي النفوس مستملح ، وفي الاذواق مستعذب ، وفي
القلوب محبوب ، وللإسماع ، ألوف : كلما تكرر حلا ، ومن أي الأفواه
سمع علا وغلا ، ولا يصح في العقل السليم أن تجتمع كل تلك الصفات
فيه اتفاقا ، ولا يصدق بالصدفة في ذلك الفكر الصحيح ، فمن الواجب
في حق هؤلاء المتأملين فيه ، والمتدبرين فيما يحويه . واللائق بانصافهم
بعد ذلك أن يقولوا : إن الذي ظهر لنا وتحققناه من اجتماع تلك الصفات
في هذا الكلام البديع أنه كلام تعجز عنه قوى البشر ، ولو كان بعضهم
لبعض ظهيرا ، فأتيان محمد عليه السلام به وهو أمي - ومن المحال عادة
أن يأتي به أكبر العلماء ، وأحدق الفلاسفة ، وأعظم المؤرخين ، وأكبر
السياسيين : دليل واضح على أنه من عند الله تعالى أرسل به محمد ليكون
معجزة له تدل على تصديقه إياه في دعوى الرسالة

واعلم أن هذا الطريق في الاستدلال على كون القرآن معجزة
أيد الله تعالى بها سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد هدى الله
تعالى به كثيرا من أنبائه عليه الصلاة والسلام ، كما هدى الطريق
الأول ، وهم احتواه القرآن على الفصاحة والبلاغة لا بين معجز
نصحاء العرب وبغاؤهم بسببها عن معارضة أقصر سورة منه ، وقد
نزل كل من هذين الطريقين سهل السالك على من يعرفه بمن
الفصاحة . بل إنهم ردوا عن المعرفة بنضائهم الجاهل لا
بعد الآن إلى انضمامه إلى الأول ، من يريه من

الفضيلتين : فله الاستدلال بخضوع أهلها وتسليمهم بتلك المعجزة الخارقة للعادة حتى فارقوا دين آبائهم وعوائدهم ، واتبعوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم في دينه وهداهم كما تقدم شرح ذلك قريبا ، وبذلك ظهر : أن معجزة القرآن التي أعطاها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هي معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وبقية المعجزات — وان يكن قد انتفع بها من شاهدها ممن كان في عصر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانتفع بها من نقلت اليهم بالنقل الصحيح : كاهل الأعصر التي بعد الرسل — لكنهما لم تبق مشاهدة إلى الآن وبعد الآن ، فلمعجزة القرآن هذه الخاصة من بقاء مشاهدتها على كرور الزمان ، وهذا من جملة ما أكرم الله تعالى به سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وخصه به عن سائر الرسل الكرام ، لكن الهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي ذكرت في القرآن الشريف ، والحديث المنيف ، انشقاق القمر فرقتين بطلبه عليه السلام من ربه حينما طلب منه المشركون ذلك فرأى انشقاقه الكثير من أهل مكة إسلاما ومشركين ، وورد إلى مكة جماعات من المسافرين الذين كانوا يبيدون عنها ولكن أفق أمكنتهم مساو لا فقها ما يبرر أنهم رأوا انشقاق القمر في تلك الليلة ، وعدم رؤية أهل الأرض جميعا تلك الحادثة لا ينافي وقوعها ، لأن القمر بسبب

اختلاف الآفاق التي يراها أهل الأرض لا يظهر على الناس جميعاً في آن واحد بل كل وقت يظهر لأهل أفق ويختفي عن غيرهم، كما يعلم من فن الهيئة، وهذه المعجزة من يسمع بها، ويكون مؤمناً بوجود الإله القادر، ويتصور أن انشقاق القمر من الجائزات العقلية لا يمتنع عن التصديق بوقوعها بعد صحة نقاها. وتوضيح جوازها: أن القمر ما هو إلا جسم من جملة الأجسام القابلة للانقسام والالتحام وكما يوجد في أرضنا من انشقاق جبال عظيمة، وحدوث وديان لم تكن، واللتحام جبال كانت منفصلة؟ وهذه الحوادث الأرضية وإن تكن جرت عادة الله تعالى بإيجادها بأسباب يحدثها الله تعالى: من نحو الزلازل، والصواعق، والأمطار الغزيرة، ولكن تلك الأسباب ما هي إلا عادية والله تعالى قادر على إيجاد تلك الحوادث بدون تلك الأسباب، كما يعلم من كمال قدرته سبحانه وتعالى، والقادر على التصرف بهذه الأجسام الأرضية تلك التصرفات هو قادر على التصرف في القمر بالانشقاق ونحوه؛ إذ لا فرق بينه وبينها في الجسمية، وقبول الانشقاق والالتحام، إلا أن القمر أكبر منها والكبر والصغر: لا دخل له في قبول ذلك وعدم قبوله في جانب قدرة الله تعالى، ثم إن الروايات الصحيحة التي نقل لنا فيها تلك المعجزة تفيد أن القمر انشق فرفقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، ولمراد بذلك أنه صار بمثل الرائي أن فرقة منه فوق الجبل أي في أفقه، لا بمعنى أنها ركبت على نفس

الجبل وفرقة دونه أى فى مقابلته لا بمعنى أنها تحت الجبل ، وهكذا يقول الواحد منا : قد رأيت القمر فوق الجبل وخلفه وفوق البحر والحال أن القمر ليس كذلك ، وإنما مراده التعبير عن كيفية الرؤية له فلا يقال : إن القمر جسم كبير جدا دون أرضنا بقليل على ما يقوله علماء الهيئة ، فلا يمكن أن فرقة منه توضع على نفس جبل صغير من جبال الأرض ويسعها ذلك الجبل وفرقة منه تكون تحت الجبل بالفعل ، لأن هذا غير مراد - كما علمت ، وإنما نصت الرواية على كيفية هذه الرؤية لتفيد أن الفرقتين من القمر قد تباعدتا عن بعضهما حتى لا يكون للمشركين اشتباه فيما لو كانتا متقاربتين فيقولون : إن رؤيتنا انشقاقه هي من غلط الحس والتخيل الذى لا أصل له فى الواقع ، ومن المعلوم : أن القادر على شق القمر فرقتين هو قادر على تباعدهما ذلك التباعد ثم ضمهما لبعضهما ، ثم من غريب ما يحكى عن بعض شروح المدونة أن فرقة منه نزلت لجنبه وخرجت منه عليه السلام فهذه الرواية غريبة : لا يجب علينا الايمان بها ، لعدم قوة سندها فلا حاجة لنا فى تأويلها وتطبيقها على قانون العقل ، ومع هذا فيمكن تطبيقها بأن تلك القطعة كانت صغيرة قابلة للنزول والخروج من كه ، إذ لا صراحة فى تلك الرواية بأنها كانت نصف القمر ، وهذا لا يصح ، وقدرة الله تعالى صالحة لذلك ، ونحن معشر المسلمين رأينا ان انشقاق القمر منجزة لنبينا عليه الصلاة والسلام بالنقل

الصحيح ، وهو من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : آمنا وصدقنا بوقوع ذلك بلا ريب

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوف الشمس مدة من الوقت وردها بعد المغيب ، وقد روى هذا في بعض الأحاديث ، وروى أيضا : أن الشمس وقفت عن المغيب ليوشع بن نون عند ما كان مع بنى اسرائيل يقاتل الجبارين ، وذلك معجزة له أيضا ، والاحاديث في وقوف الشمس وردها وإن كانت آحادية بمعنى أن نقلها لم يكن متواتراً قطعى الثبوت بحيث يكفر منكره ، لكن الايمان بذلك هو الموافق لشأن المسلمين ، والأسلم لهم في دينهم ، فنحن نؤمن به ونصدق ، ووقوف الشمس وردها بعد المغيب وإن كان في نفسه أمراً عظيماً جداً ، ولكنه من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ولا يعد عظيماً بالنسبة لعظيم قدرته سبحانه ، وتوضيح ذلك أنه سواء اعتبرنا أن الشمس هي التي تسير أو أن الارض هي التي تدور على محورها وتتمر بأوجهها على الشمس كما تقول به الهيئة الجديدة ، فكلا الأمرين لم يكن إلا بقدرة الله تعالى ، فهو الذى يسير الشمس أو يدير الارض مقهورة بقدرته وطاقته ، والذى يكون قادراً على تحريك كل من هذين الجسمين العظيمين هو قادر على إيقافهما ساعة من النهار أو على عكس حركتهما مدة من الوقت ثم إعادة الحركة كما كانت ولا يلزم على ذلك محال ، وإن قيل على

فرض تسليم القول بالهيئة الجديدة ، وأن الارض هي التي تدور
لووقفت الارض عن حركتها أو انعكست حركتها يلزم أن يبقى ماء
البحر آخذاً بحركة الاستمرار فكان يفيض على اليابسة ويغرق أهلها ،
قلنا : ان القادر على إيقاف الارض أو عكس حركتها هو قادر على
سلب حركة الاستمرار من ماء البحر وجعله تابعا للارض في وقوفها
وعكس حركتها فلا يفيض حيثذ على اليابسة ، ولا يلتفت إلى قول
بعض الملحدين : انه ليس من حكمة الخالق تعالى أن يوقف ذلك
الجسم الكبير المبنى حركته على ناموس عظيم في الكون وهو ناموس
الجاذبية ، كما يقول أهل الهيئة الجديدة لأجل غرض واحد من البشر
وهو محمد أو يوشع عليهما السلام ، لأننا نقول : لم يكن ذلك الصنع
منه تعالى لأجل مجرد غرض واحد من البشر وإنما هو لحكمة بالغة ،
وهي إظهار المعجزة الخارقة للعادة التي ينشأ عنها اهتداء ألوف من
الخلق ، ويرجعون بذلك من الكفر الذي يهلك نفوسهم إلى الايمان
الذي يحييها الحياة الابدية ، وينشأ عنها تثبيت ألوف وتمكينهم بالايمان
ممن آمنوا قبل ذلك ، ويبقى ذكرها ونقلها بين الخلق يتحدث بها الجيل بعد
الجيل ، ويتنفع بنقلها من أراد الله تعالى هداه ، ويتصور به اعظمة قدرته
تعالى وعجيب أعماله : فهذه الحكمة العظيمة توازي في العظمة حصول
تلك الخارقة وتفوقها ، ويليق بها أن تحصل تلك الخارقة لأجلها ،
على أن ذلك الملحدين نظر إلى مجرد عظمة تلك الخارقة ولو قابلها بعظمة

قدرة الله تعالى لما وجدها شيئاً يذكر ، وهذه الخارقة وغرض واحد من البشر عند الباري تعالى على حد سواء في أن كلا منهما تحت تصرفه ومشيتته ، ولا يعظم شيء منهما لدى عظمته ، وإن كان في نظرنا القاصر أننا نجد الفرق بينهما عظيماً وهما عند الله سيان في الجواز والامكان ، ثم إنه في بعض الروايات التي نقلت تلك المعجزة ما يفيد أن الرسول طلب وقوف الشمس أو أعادتها ، فلا يقال على فرض تسليم رأى الهيئة الجديدة بدوران الأرض : أنه كان الصواب في حق ذلك الرسول أن يطلب وقوف الأرض أو عكس حركتها عوضاً عن طلب ذلك في الشمس ، لأننا نقول على فرض تسليم ذلك : فلا مانع من أن يكون الرسول يعلم حقيقة الأمر ولكنه طلب ذلك في الشمس بناء على الظاهر والجاري في رأى الشعب والمألوف بينهم في الاستعمال ، والله سبحانه يعلم المقصود من طلبه ولا يكون ذلك غلطاً من الرسول ، وهكذا ترى أهل الهيئة الجديدة يجرون في كلامهم على ظاهر ما يبدو لأهل لغتهم ، ويجري في استعمالهم ، فيقولون : طلعت الشمس وغربت ، وهم يعتقدون وقوفها وحركة الأرض ولم نسمعهم يقولون : طلعت الأرض أو غربت أو وصلت الأرض لمقابلة نور الشمس أو فارقت ، وكل ذلك منهم على حسب الشائع في الاستعمال وظاهر ماتعطيه المشاهدة ، إذا علمت ماقررناه ، واندفعت عنك تلك الشبهة بما حذرناه ، فاعلم أننا معشر المسلمين قد آمننا بهذه المعجزة

إذ لا مانع يمنع من وقوعها ، والله قادر على إيجادها معجزة مؤيدة
لرسله الكرام ، يهدي ويثبت بها الألوف من الأنام

ومن معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام التي نقلت إلينا
في الأحاديث الشريفة، نبع الماء من بين أصابعه فاستقى منه العدد الكثير،
وتكثير الطعام القليل حتى شبع منه الجهم الغفير ، فمن يعتقد بوجود
الاله سبحانه وقدرته على خلق الأجسام وابرازها من العدم أو قلبها
من صورة إلى صورة ، فلا مانع يمنعه من تصديق هاتين المعجزتين ،
وتوضيح ذلك : أنه لا مانع أن الله تعالى عند طلب الناس من الرسول
الماء خلق سبحانه الماء أو قلب الهواء ماء وصار يبرزه للحاضرين من بين
أصابع رسوله عليه الصلاة والسلام حتى اكتفى المستقون للماء، وقلب
الهواء ماء هو داخل تحت قدرة الكيماويين في كسبهم ، وقد ورد
قريبا في المجلات العلمية أنهم اكتشفوا قلب الهواء سائلا فما بالك
بقدره خالق الهواء والماء وأهل الكيمياء ؟ وكذلك : لا مانع أن يخلق
الله تعالى طعاما من جنس الطعام القليل الذي كان في حضرة الرسول
ويضيفه إليه ولم يشاهد الحاضرون ، إلا أن الطعام القليل قد كبر
وشبع الكثير منه ، فحيث كان جميع ذلك من الجائزات العقلية وقدره
الله تعالى صالحة لابرازه ، وقد نقل لنا وقوعه معجزة لنبينا صلى الله
تعالى عليه وسلم فقد آمننا وصدقنا به معشر المسلمين

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام شفاء الامراض العضالة على

يديه بمجرد لمسه لأصحابها أو دعائه لهم، وردعين أحد أصحابه بعد ما قلت
فعادت أحسن ما كانت ، وإحياء الميت بمجرد دعائه ، وهذه الخوارق
قد نقلت لنا بالاحاديث الشريفة فأمنابها وصدقنا ، لأنها جائزة
وداخله تحت تصرف قدرة الله تعالى وهو الذى يوجدها على يد
رسوله معجزة له ، وتوضيح ذلك : أن شفاء الامراض — وإن
كانت عادة الله تعالى فيه هو أن يكون بأسباب وفى زمن ممتد ،
لكن ذلك أمر عادى والله قادر على ابرازه بدون ذلك خرقا للعادة —
كما مر بيانه وارجاع العين المقلوعة وإن لم تجر العادة فيه فإنه من
الجائزات العقلية ، ولا يحكم العقل باستحالته ، وإنا نرى كثيراً من
الاطباء يصلون بعض أجزاء الجسم الحيوانى بعد انفصاله ويلتحم بواسطة
العمليات الجراحية ، ورد العين وإن لم يكن داخلا تحت كسبهم
وقدرتهم ولكنه داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى السكاملة التى
لا تقاس قدرتهم بها ، وإحياء الميت فهو من الجائزات العقلية وإن
لم تجر العادة به ، وأن القادر على جعل الجماد حيوانا وإعطائه الحس
والحركة والادراك هو قادر على إحياء الجسم الحيوانى بعد أن تفارقه
الحياة ، فمن يتصور عظمة قدرة الله تعالى وعجائب أعماله : لا يمتنع
من تصديق وقوع هذه الخارقة مادامت تنسب لفعله تعالى

ومن معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم نطق الطفل الرضيع ،
والحيوان الأعجم ، والشجر ، والحجر ، وشهادتها له بالرسالة ، وقد

نقل لنا هذا في الأحاديث الشريفة ، وورد في القرآن المجيد نظيره ، وهو كلام الهدد والخلة لسيدنا سليمان عليه السلام ، وهذه الخوارق هي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، وبيان ذلك أن كل شيء في هذا الكون : من أجسام ، وأعراض : كالاصوات وغيرها هو بخلق الله تعالى ، فكلام الإنسان الكبير هو لا شك بخلق الله تعالى ، ونفس طبيعته الحيوانية لا تستلزم صفة الكلام ، إذ لا فرق بينها وبين طبيعة الحيوانات العجم في الحيوانية ؛ بل لا فرق بينها وبين الجمادات في أصل الجسمية ، كما أن صورته لا تستلزم صفة الكلام أيضا ؛ إذ قد يوجد من أنواع القردة ما يشابه الإنسان في الصورة تمام المشابهة إلا في اكتساء جلده بالشعر وهذا لا يكون فرقا موجبا لتخصيص الكلام بالإنسان الكبير ومع ذلك فلا يتكلم ذلك القرد ، ولا دليل على وجوب انحصار صفة الكلام بالإنسان بل قد وجد بعض الحيوانات البعيدة المشابهة عنه قابلة لتعلم الكلام وذلك : كالطير المسمى بالببغاء ، وفيما قررناه : قد ظهر أن نوال الإنسان لصفة الكلام ما هو إلا بتشريف الله تعالى له بها وإن قيل : يمكن أن يكون في الإنسان الكبير شيء خفي علينا ولم يوجد في غيره هو الموجب له صفة الكلام ، ولعله الذي يسمى بالقوة الناطقة ويعد فصلا للإنسان ، أو تكوين خاص في مخه كما يقول المتأخرون ، قلنا : حصر الموجب للكلام في هذين غير مسلم ، على أن الثابت عندنا أن مثل هذا

الموجب سبب عادي والله قادر على خلق الكلام بغير واسطة ، قال قادر على خلق صفة الكلام فيه قادر على خلقها في غيره : من الطفل الرضيع ، والحيوان الاعجم ، والجماد ، وان كان هذا خلاف العادة قاله تعالى يخرق به العادة معجزة لرسوله : فيخلق تلك الالفاظ التي وجدت من ذلك الشيء الذي لم نعهده يتكلم ويصدرها عنه ويسمعا الحاضرون فنحن معشر المسلمين قد آمننا بهذه المعجزات لانها من الجائزات الداخلة تحت قدرة رب الارض والسماوات

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام التي وردت الاشارة اليها في القرآن المجيد ، وبينها الحديث الشريف : رميه صلى الله تعالى عليه وسلم وجوه الكفار يوم الحرب بكف من تراب فأصاب عين كل واحد منهم شيء من ذلك التراب وانهزموا ، وهذه الخارقة من الجائزات العقلية ، اذ لا مانع من وصول شيء من ذلك التراب لعين كل واحد ولكن : ليس في قدرة أحد من الناس أن يوصله هذا الايصال ويوزعه على أعينهم هذا التوزيع ولكنه في قدرة الله تعالى ، فهو قادر على فعل ذلك معجزة لرسوله عليه السلام ، وقد امتن عليه بهذه الخارقة التي صرف بها عنه وعن أصحابه الأعداء فقال في القرآن الشريف مخاطبا له عليه السلام بقوله : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » يعني وما رميت حقيقة وأوصلت التراب الى كل عين من أعين الكفار حين رميت ظاهرا ، لان ذلك ليس في قدرتك ولكن الله هو الذي رمى حقيقة وأوصل حبات التراب لأعين أعدائك المحاربين . فنحن

معشر المؤمنين : نؤمن بحصول هذه الخارقة معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم

ومن معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اخباره بالمغيبات سواء كانت حاضرة في الزمان غائبة عن العيان أو كانت مستقبلية ستأتي ولو بعد مئات من السنين ، وهذه المعجزة بلغت الأحاديث في كثرة حدوثها حد التواتر المعنوي ، وأفراد حوادثها بحر لا ساحل له ، أما إخباره عليه السلام بالمغيبات التي كانت حاصلة في زمانه وغائبة عن عيانه فذلك : كأخباره بوفاة النجاشي ، وبالظعينة الحاملة الكتاب إلى قريش ، وفي كتب الأحاديث من ذلك شيء كثير جدا تضيق عنه الصحف : فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إليها فيرى العجب العجيب؟؟ وأما إخباره بالمغيبات المستقبلية فهو شيء كثير الحوادث ، منه ما وقع في حياته ، ومنه ما وقع بعد وفاته بعد أزمنة قليلة أو متطاولة ، ومنه ما سوف يقع ، ولنذكر شيئا من هذا النوع مما ورد في القرآن المجيد ، أو الأحاديث الشريفة ، على وجه الاختصار يظهر به الحق بلا إنكار . فنقول : -

من ذلك ماورد في القرآن الشريف أن أصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وكانت مكة حيثئذ في أيدي المشركين وهم محاربون له ولا أصحابه فدخلها هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام . وحقق الله تعالى لهم ذلك ، ومن ذلك قوله في القرآن : « غابت الروم في أدنى الأرض ، وهم من

بعد غلبهم سيغلبون في يضع سنين » فكان الأمر كذلك ، فبعد أن غلبت فارس الروم غلبتهم الروم في يضع سنين ، أى ما بين الثلاث سنين إلى العشر كما أخبر القرآن ، يعلم ذلك من السير النبوية ، والتاريخ ، وفي القرآن جملة أخبار غيبية يعلم بيانها من كتب التفسير

ومن ذلك ما ورد في الأحاديث الشريفة كما رواه الشيخان ، وأصحاب السنن ، والحفاظ الأئمة : كأحمد ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك : من أنه عليه السلام أخبر أصحابه بالظهور على أعدائهم ، وبفتح مكة ، والقدس الشريف ، والشام ، واليمن ، والعراق ، وظهور الأمن في الممالك الإسلامية حتى تصير المرأة تسافر من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله تعالى ، فكان ذلك - والله الحمد - في حياته وبعد وفاته عليه السلام ، وأخبرهم بما يفتح الله تعالى على أمته وما يأتون من زهرة الدنيا وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر فكان ذلك ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقيصر وقسمت خزائنها بينهما وبينهم وأخبرهم أنه يغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحيفة وترفع أخرى ، يعنى تفيض عليهم الدنيا ويأخذون بالتنعم بعد كشف العيش الذي كانوا فيه ، وكان الأمر كذلك ، وهذا ، وضع صحيفة ورفع أخرى : لتحقيق في كيفية تناول الطعام الذي يسمى في اللغة التركية « قالدر » وأخبرهم أنهم يقاتلون الخزر والروم ، وبذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ، ولا فارس بعده وكان الأمر على ما أخبر ، وأخبر أنه زويت له الأرض فأرى مشارقها

ومغاربها وسيبلغ ملك أمته مازوى له منها ، وكذلك كان : فامتد ملك
أمته فى المشارق والمغارب ما بين أرض الهند فى المشرق الى بحر طنجة
فى المغرب ولم يمتد فى الجنوب والشمال مثل ذلك الامتداد ، وأخبر
بالموتان الذى كان بعد فتح بيت المقدس فكان بعد ذلك الفتح طاعون
عمواس ، وأخبر بما ينال أهل بيته رضى الله تعالى عنهم من التقتيل
والتشريد وبقتل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه فى « الطف »
فكان ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وأخبر عن الحسن رضى الله
تعالى عنه بأنه يصلح الله به بين فئتين فكان الصلح بسببه بين الفئة
التي معه والفئة التي مع معاوية ، وقال لسراقة أحد أصحابه : كيف
بك اذا لبست سوارى كسرى ؟ فلما أتى بهما لعمر عند فتح بلاد
فارس ألبسهما لسراقة وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما
سراقة ، كما نقله السيوطى فى « الجامع الصغير » ونقله فى « جمع
الجوامع » عن البخارى فى « التاريخ » والحاكم فى « المستدرک »
ونقل بعضهم عن الامام أحمد فى مسند حسن^(١) وصححه عن بشر
الغنوى : لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش
ذلك الجيش ، وقد حقق الله تعالى فتح القسطنطينية على يد ساكن
الجنان السلطان « محمد الغازى » المشتهر بأبى الفتح ، فى عام ثمانمائة
وسبع وخمسين من هجرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

(١) كذا بالأصول التى بأيدينا وهو كما ترى

وأصبحت عاصمة دار الاسلام ، ومقر خليفة سيد الانبياء العظام ،
وموئل الخاص والعام ، وما أحسن تلك الشهادة من حضرة فخر
الكائنات عليه أفضل الصلوات والتحيات في حق فاتح القسطنطينية ،
حضرة مولانا السلطان « محمد الغازي » بل الله ثراه برضوانه ، وأسكنه
فراديس جنانه ، وفي حق جيشه المؤيد المنصور ؟؟ وما أكرمها من
منحة تنشرح بها الصدور ؟ كيف : وهي من أعظم المناقب الحسان ،
لسادتنا سلاطين آل عثمان ، مع ما لهم من المفاخر التي لاتعد ، والمآثر
التي لا يحيط بها حد ، بما فتح الله تعالى على أيديهم من الممالك
العظيمة ، والاقاليم الجسيمة ، وجمعهم كلمة أهل الاسلام بعد التفرق ،
وانقسام ممالك الاسلام الى أقسام عديدة ، وحكومات متباينة كل
ذلك مع محافظتهم على الشريعة المحمدية المطهرة ، وتأيد الملة الحنيفية
المنورة ، ونصرتهم مذهب أهل السنة والجماعة ، وحمايتهم الممالك
الاسلامية وتغورها ، وتعظيمهم لحمة الشريعة المحمدية من علماء الدين ،
وتعظيمهم ومودتهم لآل بيت سيد المرسلين وأشرف النبيين ،
إكراما لجدهم الأعظم ، واستمدادا لروحانيته صلى الله تعالى عليه
وسلم ، وخدمتهم للحرمين المحترمين ، والمسجد الأقصى ، وتشيدهم
من الجوامع ، والمساجد ، وبيوت الأذكار ، وجيليل الآثار مالا
يحصى ، وتعهدهم بالعطايا صنوف المحتاجين ، وتطيب قلوب افراد
التبعة العثمانيين ، وبذل ثابت الهمم في تأييد هذا الدين ، وإقامة

شمائر الموحدين ، ونشر العلوم والمعارف في سائر الاقطار ، وكافة النواحي والأمصار ، الى غير ذلك من المناقب الجليلة ، والمآثر الجزيلة التي ملأت الكتب والدفاتر ، وقصرت عن احصائها الاقلام والمحابر ، فالله المسؤل : أن يؤيد شوكة مجدد مفاخرهم ، ومؤيد مآثرهم ، حضرة سلطاننا الاعظم ، وخليفة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على ممر الدهور والأزمان ، ملحوظا بعين غناية سيد الأكوان صلى الله تعالى عليه وسلم ، آمين ، آمين

وليعلم : أن هذه الاحاديث الواردة في أخباره عليه الصلاة والسلام بالأمور المستقبلية قد دون كثير منها في تأليف العلماء الأئمة الاعلام قبل أن تحدث وقائعها في الكون ، ثم بعد ذلك صارت تحدث واحدة بعد واحدة ، وتلك التأليف : معلومة مشهورة ، معلوم تاريخ جمعها وكتابتها ، هذا : حديث فتح القسطنطينية رواه الامام أحمد الذي كان قبل فتحها بمئات ، وكذلك نقله السيوطي في «جمع الجوامع» عن البخاري في «التاريخ» والحاكم في «المستدرک» ، وكل من البخاري والحاكم كان قبل فتحها بمئات ، ومعاذ الله أن ينقل تلك الاخبار في كتبهم أنباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبصار شريعته وتسكون غير ثابتة الرواية عندهم ، فلولا اعتمادهم روايتها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما حرروها في كتبهم باقية على مدى الدهور وهم يعلمون وفور أعداء الدين المبين ، ومن المعلوم أن

سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : كان من العقل في أعلى الطبقات كما يشهد له بذلك أعداؤه ، وكيف يقدم عاقل ادعى منصب الرسالة من عند الله ، واتبعه عليه الألو ف على الاخبار بتلك الامور المهمة : كفتح القدس ، والشام ، والقسطنطينية ، وأمثالها وهو يعتقد أن ذلك لا يكون ، ويعرض نفسه للتكذيب والطعن في مستقبل الزمان ؟ معاذ الله أن يقدم عاقل على ذلك فليتأمل المنصف

ثم ليعلم بعد ذلك كله أن الاخبار بالغيب ليس في طوق البشر من رسل أو سواهم ، ومن ادعى علم الغيب من نفسه فقد قال العلماء : إنه يكفر ، وإنما الذى يحصل للبشر من ذلك إنما هو باعلام الله تعالى لهم ، وهو سبحانه : عليم بما كان وبما يكون ، فلا اشكال في ذلك ، فنحن معشر المسلمين نؤمن بوقوع الاخبار المغيبات من الرسل باعلام الله تعالى لهم عليهم الصلاة والسلام

واذا أردنا أن نستوفي معجزات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى أيده الله تعالى بها احتجنا الى كتابة مجلدات ، ولكن قد ذكرنا منها ما يكون فيه للعقول مقنع ، وفي الحقيقة ونفس الأمر اذا نظر العاقل اللبيب في نفس شريعته عليه السلام ، وما اشتملت عليه من الحكم والاسرار ، والمنافع الدنيوية والأخروية ، ونظر في ذاته الشريفة ، وما خصه الله تعالى به من الشرائع والاخلاق المنيفة ، مع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد ربى يتيماً ، ونشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، بين قوم

أميين ما عندهم من المعارف والفنون عين ولا أثر إلا ما فطرهم الله تعالى عليه : من الفصاحة والبلاغة ، ولم يجتمع مع أهل المعارف اجتماعاً يؤهله لا كتساب شيء مما جاء به وبلغه للخلق ، وما جاء به بجزع عجاج يستغرق الاحاطة بعشره العمر المديد ، جزم ذلك العاقل اللبيب أن حاله عليه السلام ، وحال شريعته هو أمر خارق للعادة ، يحكم العقل بأنه معجزة أكرمه الله تعالى بها مؤيدة لدعواه ، ولكن هذه المعجزة لا يدركها ولا يفهمونها إلا أهل الدقة في النظر ، وأذكاء الخلق من البشر ، لأن من سواهم لا يفهم إلا المعجزات المحسوسة بحاسة السمع والبصر : مثل كلام الحجر ، والشجر ، وانشقاق القمر ، والله تعالى قد أيد نبيه عليه السلام بكلا النوعين من المعجزات كما يظهر مما قدمناه في بيان معجزة القرآن الشريف وسواها من المعجزات المنقولة في الحديث المنيف ، ولتذكر الآن طرفاً من بيان حال شريعته عليه الصلاة والسلام ، وحالته الشريفة العظيمة الشأن ، عسى أن ينتفع بذلك بعض أهل هذا الزمان ، فنقول : —

إذا نظر العاقل المنصف في شريعة حضرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نظر من يريد الاطلاع على الحقائق ، وأحاط بأسرارها على قدر الطاقة سالكا أوضاع الطرائق ، ظهر له ظهور الشمس في رابعة النهار : أن الشريعة الحممدية تأمر بكل خير ، وتنهى عن كل شر وضير ، هي : أنفع ما يكون للأئام ، على مدى الليالي والأيام ،

فيراها تائماً بالخلق بالاعتقاد بالمعتقد الصحيحة في حق الله تعالى ، بوصفه سبحانه بكل كمال يليق بشأن الألوهية ، وتنزيهه عن كل نقص تعالى عنه صفة الربوبية ، وكذلك في حق الرسل الكرام الذين جعلهم الله تعالى هداة الانام : من نحو اعتقاد عصمتهم من المعاصي ، وتنزيههم عن كل نقص يخل بمنصب الرسالة ، وتأمر بعبادات هي في الحقيقة عائدة بالنفع على العباد ، فتأمر بالطهارة ، وهي مع ما اشتملت عليه من منافع النظافة والنشاط للأبدان ، تذكار للإنسان بالتوبة التي هي طهارة المرء من الذنوب والآثام ، وتأمر بعبادة الصلاة ، وهي من أعظم المهنذبات للنفس ، بما اشتملت عليه من الخضوع والخشوع ، والركوع والسجود : تعظيماً لله تعالى ، وفيها التوسل إليه سبحانه وتعالى والضرعة لديه ، وسؤاله الرحمة والمغفرة والاعانة والاستعاذة من العقاب ، فلذلك كانت وصلة بين العبد وربّه ، وتذكيراً له بمن هو الرقيب عليه ؟ فلو أن الإنسان استغرق في الغفلة عن مولاه ، بأنهما كه في أشغال دنياه ، اطغت نفسه ، وأنساه الشيطان ذكر خالقه ، وهوتن عليه سلوئك سبيل المعاصي والشهوات ، ولكنه بوقوفه في اليوم والليلة خمس مرات بين يدي مولاه ، مستحضراً عظمته وجلاله يلتجئ الى التوبة عما جناه ، وتفتر همته عما من المعاصي نواه . وفي ذلك يظهر مصداق قوله تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفي اجتماعات الصلوات : من صلاة الجماعة . والجمعة . والعيدين

تسهيل سبيل التعارف والتآلف بين المسلمين ، والتعاضد على نصرة الدين ، وألفة الاطاعة لأمر المؤمنين ، وحكم كثيرة يقصر عنها قلم الكاتبين ، وتأمر بالصوم وفيه : تهذيب النفس بمنعها عن شهواتها ، وتمرين الانسان على ردع نفسه عن المعاصي والشهوات المضرة ، وتذكّر المرء بأحوال الفقراء والمساكين وما يجدونه من ألم الجوع ، ولولا الصيام لكان ربما يمر على الغنى عمره ولا يعلم ما هو ألم الجوع فلا يجد للشفقة على الفقراء في قلبه أثراً ، وتأمر بالزكاة وفيها الاحسان للفقراء والضعفاء بسد حاجاتهم ، وتهذيب نفس الغنى ، وتطهيرها عن خلق البخل المذكور ، وتأمر بعبادة الحج وهو زيارة أمكنة مخصوصة وعد الله الأمة على لسان رسوله عليه السلام بغفران الذنوب وقبول التوبة عندها ، وفي ذلك اجتماع المسلمين ألوفا مؤلفة في تلك الاماكن وذلك يدعو الى التعارف والتآلف ، وفيه تذكار ما جرى لرسول الله الكريم وعباده الصالحين في تلك البقاع المشرفة : كتذكّر ما جرى لسيدنا آدم عليه السلام ولزوجته هناك من قبول الانابة لأمولى ، وما جرى لسيدنا ابراهيم الخليل ولولده اسماعيل عليهما السلام من الامتحان واطاعتهم للرحمن ، ويتذكّر أعمال أولئك الاخيار ، ويحكاكاتها في تلك الديار : تنبعث الانفس لتذكّر ببقية أعمالهم وعباداتهم واطاعتهم لمولاهم ، وتستاق للاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم في كل مرضى لخلقهم ، وفيه زيارة البيت المعظم الذى سماه الله تعالى بيته ،

وهو سبحانه غنى عن المسكان ، وانما ذلك منه تعالى تنزل لافكار
البشر الذين اعتادوا على الالتجاء لبيوت ملوكهم عند ماتدهمهم المصائب
فالحجاج يلتجئون الى ذلك البيت مستجيرين من مصائب الذنوب
وغوائل المعاصي ، طالين منه تعالى الاجارة من بلايا الآثام ، راجين
منه الغفران كما وعدهم على نسان سيد الاكوان ، وبذلك تطمئن
نفوسهم بنوال المغفرة عند امثال ما أمروا به من الاعمال عند تلك
الامكنة الطاهرة ، الى غير ذلك من الحكم والاسرار التي يضيق
عنها هذا الكتاب المختصر : فليرجع بذلك الى كتب الشريعة الغراء
التكفلة بمزيد البيان ، وتأمر تلك الشريعة بكل عمل حسن وتنهى
عن كل فعل قبيح مضر بالجسد ، أو العقل ، أو العرض ، أو المال ،
وتأمر بالاخلاق الحمودة : كالعلم ، والصبر ، والرضا ، والرحمة والشفقة
وتنهى عن كل خلق ذميم : كالكبر ، والحسد ، والبغضاء ، والحقد ،
حتى انها ما تركت أمراً حسناً إلا أمرت به وحضت عليه ، ولا أمراً
قبيحاً إلا حذرت منه ونهت عنه ، وقد جعلت لبعض المنهيات الظاهرة
الضرر عقوبات وحدودا لاجل الزجر عنها : كمثل قتل النفس ظلماً
الذى قبجه لا يحتاج الى بيان ، ومثل الزنا الذى يقتضى اختلاط الانساب
وفقد التناسر ، وكشرب الخمر الذى يزيل العقل ، ويؤهل الانسان
لارتكاب كل قبيح ، وكل ذلك ينطوى تحته حكم بديعة ، وأسرار
رفيعة ، تعلم من الاطلاع على كتب هذه الشريعة ، وكذلك لم تدع

بابا من أبواب المعاملات والسياسات البشرية إلا وضعت له قوا .
وشرعت له أصولا ينتظم بها أمر المعاش بين البشر ويستوفى بها كل
من القوى والضعيف حقه : فيذنت أصول البيوع ، والشركات ،
والانكحة والمواريث ، والمعاهدات ، وكيفية الاطاعة لولاية الأمور ،
وكل ما يقوم به صلاح الامة من كلى وجزئى يعلم ذلك من الاطلاع
على كتب الفقه أصولا وفروعا ، فاتيان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بهذه الشريعة التى عجز عن الاتيان بها أكبر العلماء ، وأحذق
الاذكياء ، وأكبر السياسيين الممارسين سياسة الأمم ، مع أنه عليه
الصلاة والسلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يتفق له تعلم من
أحد البشر فى مدة حياته هو معجزة خارقة للعادة ، ودليل على أن تلك
الشريعة من عند الله تعالى ، أرسله بها سبحانه لإرشاد الخلق الى الحق
أما كونه عليه السلام أميا لا يقرأ ولا يكتب فهو أمر مشهور
متواتر بالتواتر الصحيح الذى جاءت به المئات والالوف من العدول
الثقة ، وقد صرح به فى القرآن الشريف فى عدة آيات ، والقرآن
يتلى على رؤس الاشهاد من زمنه عليه السلام الى يومنا هذا ، ولم ينكر
كونه أميا أحد من قومه ، ولا أحد وجد بعد زمانه قال الله تعالى
فى القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه
بيمينك اذا لارتاب المبطلون »

وأما انه عليه السلام لم يتفق له التعلم من أحد من الناس ، فلا أنه

نشأ بين قومه في مكة مشهورا ، روبا بينهم ، لانه من ذوى البيوت
وأصحاب الحسب ، ومثله لا يجهل في بلدته ، وقومه أميون لم يوجد بينهم
من يعرف القراءة والكتابة الا القليل ، وأما من يكون محيطا بعدة
معارف ، ومطلعا على سياسات البشر ، وقوانين الأمم بحيث يؤهله
ذلك لترتيب مثل هذه الشريعة التي جاء بها الرسول عليه السلام ، فلم
يكن موجودا بينهم لا منهم ولا من سواهم ، اذ مثل هذا لا يخفى وجوده
في بلدة مثل مكة ، وكان يغدو مشهورا بين الخاص والعام ، ولو قصد
أن يخفى نفسه لعسر عليه ذلك ، وأيضا ان تعلم الرسول عليه السلام
تلك الشريعة من مثل هذا الانسان المفروض لا يكون في مجالس أو مجلسين
بل يحتاج الى أعوام ، وأن يتردد عليه في كثير من الليالي والايام ، فليس
من الممكن عادة أن يخفى تعلمه منه على جميع أهل بلده مهما تحرى ذلك
واجتهد فيه ، وقد كان بعض المشركين تمسكوا بمثل هذه الشبهة ،
وصاروا يقولون : إن محمدا يتعلم القرآن من فلان ، وذكر وارجلا أعجميا
كان بينهم ، فافتضحوا بهذه الدعوى الواضحة البطلان ، حيث نسبوا
تعليم القرآن الذي هو في أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة العربيتين
الى رجل أعجمي : ليس عنده أدنى فصاحة ، ولا أقل بلاغة توجد
في اللسان العربى ، وقد رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة في كتابه
المجيد فقال سبحانه : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان
عربى مبين »

وان قيل : ربما ان محمدا عليه السلام تعلم تلك الشريعة من أحد الناس خارج مكة في بعض البلاد الشامية التي روى انه سافر اليها قبل دعوى الرسالة مع جملة من ائجار ، قلنا : ان الذي ثبت نقله وصحت روايته أنه عليه السلام ماغاب عن مكة في البلاد الشامية الاعددة أيام تبلغ الشهرين أو الثلاثة هي مدة الذهاب والرجوع وقضاء مصالح التجار الذين سافرو معهم ، وتلك المعارف التي ظهرت في شريعته يحتاج تعلمها الى شهور وأعوام وليال كثيرة وأيام ، ولو كان المعلم من أبرع المعلمين والمتعلم من أذكى المتعلمين : فأى عاقل يصدق أنه عليه السلام تعلم جميع تلك المعارف في تلك الايام القلائل التي غاب فيها عن بلده - مكة ، وهو رجل أى لا يقرأ ولا يكتب ، وتلك المدة لا تكفى لتعلم باب واحد من أبواب تلك الشريعة ولو كان المتعلم كاتباً قارئاً؟ على أن الرسول عليه السلام ما جاء بتلك الشريعة وأظهرها للناس دفعة واحدة من أول دعواه الرسالة بل : كان يأتى بذلك مفرقا موزعا على الأئمنة من أول دعواه الى أن تم دينه ، وانتشر بين الأمم الذين اتبعوه في مدة اثنتين وعشرين سنة : فكان يبلغ أحكام شريعته وجميع مشتملاتها للناس شيئا بعد شيء ، على حسب المقتضيات ، والمصالح ، والحوادث ، والمشاكل ، والسؤالات ، والشبه الواردة من أخصامه : فيأتى في مقابلة كل شيء بما يطابقه وفق المرغوب ، وهذه الكيفية معلومة لنا بالضرورة ، بما نقل من سيرته ، وكيفية تمام أمره ، نقلا

صحيحاً متواتراً ، وحيثُ يُقال : ما الذي أعلم ذلك المعلم الذي يدعى
الخصم أنه علم الرسول عليه السلام بجميع الحوادث المستقبلية التي
سوف تقع وتتفق له بينه وبين أخصامه أو أتباعه ؟ سواء قيل : إن ذلك
المعلم من نفس مكة أو من خارجها ، فعلمه قبل دعواه الرسالة جميع
ما يناسب الحوادث التي سوف تحدث معه في دعواه ، فعرف جواب
كل سؤال سوف يرد عليه ، ودفع كل شبهة ، وحكم كل حادثه ، وحل
كل مشكلة : وصار عليه السلام يورد لكل شيء ما يناسبه ، ويجب
له في وقته ، مسدداً مقنناً للأفكار ، وإن انرى من تلك الحوادث ما لا يخطر
في بال أحد أنه سوف يقع أو يتفق وقوعه الى آخر الزمان : ومن
يطلع على ما حدث من الحوادث في مدة دعواه الرسالة يعلم أن احاطة
أحد بجميع ما سوف يحدث في تلك المدة واستحضار ما يلزم له هو من
الحال عادة ولا يقول به الامكابر ، وقد كان عليه السلام في أكثر
أحواله يرد عليه السؤال أو الشبهة ويجب عن ذلك في مجلسه
في الملاء امام بين جماهير أصحابه ، وأعدائه المشركين ، ولم يشاهد أحد
حيثُ أنه يلتفت الى واحد من الحاضرين ويسأله متعلماً منه ما يلزم
له من الجواب ، أو يضطر اليه من الخطاب بل : هو المجيب ، والمدافع ،
والمفيد ، والمعلم ، وكل من لديه تلامذة متعلمون ، فأين هذا المعلم
للرسول الذي يزعمه الخصم ؟ ما هذا الزعم الا افتراء بارد : فقد ظهر
الحق لذوى الانصاف ، وتبين ان اتيان سيدنا محمد الأثمي بهذه.

الشریعة الغراء معجزة من معجزاته ، وأن دعوى تعلمه من أحد من البشر هي دعوى باطلة لا يقول بها الا كل جاهل بأحوال سيرته ، وتاریخ حياته ، أو معاند مكابر للحق : هداانا الله تعالى الى ما فيه النجاة ، آمین

وأما حاله عليه الصلاة والسلام في ذاته الشريفة ، وأخلاقه ، وشمائله المنيفة ، فقد نقل لنا العدول وضح لنا الاخبار البالغة بكثرتها درجة التواتر : أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهبه الله تعالى المحاسن خلقا وخلقاً ، وجمع الله تعالى فيه الفضائل الدينية والدنيوية : أما حسن صورته وخلقه فقد ثبت النقل الصحيح أنه عليه السلام : كان أحسن الناس صورة ، وأجلهم خلقاً ، فكان على ما يرام من المحاسن والجمال الباهر ، كما قال فيه بعض واصفيه :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقد أفردت محاسن ذاته الشريفة بالتأليف. فليتشرف بالاطلاع عليها من أراد ، وأجمع ما وصفه به الواصفون قول بعض من شاهده عليه السلام : هو أجل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول زاعته. لم أر قبله ولا بعده مثله، وتخصيص الله تعالى له بحسن الصورة هو من جملة الحكم الإلهية ، فإن الله تعالى

به شه داعيا للخلق وحسن الصورة مما تألفه الانفس ، وتلذ به الأعين ،
فتقبل عليه كما أن قببح الصورة منفر مشرد

وأما وفور عقله عليه السلام وذكاء لبه . فقد صحت الأخبار ،
وتواردت النقول . أنه كان عليه السلام أعقل الناس وأذكاهم ، ومن
نظر الى تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة الخاصة
والعامة ، وتأليفه أجلاف البوادي ، وأخشان الجبال ، وتهذيبه لهم
حتى أصبحوا من أكمل الناس أدبا ، ومعرفة ، وسيرة ، فضلا عما
أفاضه من العلم ، وقرره من الشرع ، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة
تقدمت ، لم يشك في رجحان عقله ، وثقوب فهمه عليه السلام لأول
بديهة . وهذا لا يحتاج الى تقرير الدليل ؛ لتحققه بالمشاهدة في عصره ،
وتواتره بعد ذلك بين طوائف العالم ، وقد أعطى عليه السلام جوامع
الكلام ، وخصص ببدايع الحكم ، وأفرد الناس جوامع كلمه ، وبدايع
حكمه بالتأليف : فمن ذلك قوله عليه السلام : « المسلمون تتكافأ
دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وقوله :
« لا خير في صحبة من لا يرى لك ماترى له » وقوله : « ما هلك امرؤ
عرف نفسه » وقوله : « المستشار مؤتمن وهو بالخيار حتى يتكلم » وقوله :
« رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » وقوله : « ان أحبكم
الى ، وأقربكم منى مجالس يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤون
أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند

الله وجيها » وقوله: « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ،
وخالق الناس بخلق حسن » وقوله: « خير الامور أوساطها » وقوله:
« أحب حببيك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما » وقوله:
« السعيد من وعظ بغيره » الى غير ذلك من جواهر الكلام وجوامعه ،
وبديع الحكم التي يقصر عن استيفائها القلم

وأما حلمه عليه السلام وعفوه وصبره فقد كان في الدرجة
العلياء من هذه الاخلاق ، فقد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما انتقم
لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم الله بها ، ولما آذاه المشركون
أشد الاذى قيل له : لودعوت عليهم ، فقال : إني لم أبعث لعانا ، ولكني
بعثت داعيا ورحمة : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون : نعم أخذ يدعو
على القبائل التي غدرت بجملة من قراء الصحابة وقتلهم ظلما ، غير
منه عليه السلام على حرمة الله التي انتهكت في قتل أولئك المؤمنين
المظلومين ، ولما أنزل الله تعالى عليه « ليس لك من الامر شيء »
كف عن الدعاء عليهم ، وفوض الامر اليه تعالى ، وكم هم أناس بقتله
غذرا وقبض عليهم فعفا عنهم ؟ وكم جافاه أجلا ف العرب فلاطفهم ،
فهو كما نقل وصفه في الكتب القديمة : انه لا تزيد شدة الجهل عليه
الا حلما ، وكم صبر على مقاساة قریش وصابر الشدائد الصعبة معهم
إلى أن أظفره الله تعالى عليهم ، وحكمه فيهم وهم لا يشكون في إهلاكه
لهم عن آخرهم ، فإزاد على أن عفا وصفح عنهم ، وقال « أقول كما قال
أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم إذهبوا فأنتم الطلقاء »

والآثار في ذلك كثيرة وكلها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس غضبا ، وأسرعهم رضا

وأما جوده وسخاؤه وسماحته عليه السلام فقد كان بجرأ ذاخراً في هذه الاخلاق الكريمة فما روى أن رجلا سألَه فأعطاه غنما بين جبليين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة ، وأعطى غير واحد مائة من الابل ، ورد على هوازن سبائهم وكانوا ستة آلاف ، وقوم ما وهبه لهوازن فكان خمسمائة ألف ألف ، والروايات في ذلك أكثر من أن تحصى

وأما شجاعته ونجدته عليه الصلاة والسلام فقد كان منهما بالمكان انذى لا يجهل : قد حضر المواقف الصعبة وفر السكاة والابطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزعزع ، قال على رضى الله تعالى عنه : كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحدق : اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه

وأما حياؤه واغضاؤه فقد كان عليه الصلاة والسلام : أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء ، فكان لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس ، حتى كان اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا : ينهى عنه ولا يسمى فاعله ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا صخابا في الاسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة

وأما حسن عشرته وآدابه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فهو أمر مشهور : فورد أنه كان أوسع الناس صدرا ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، وكان يؤلف المسلمين ولا ينفهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، يتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلس نصيبه ، ولا يحسب جلسه أن أحدا أكرم عليه منه : من جالسه أو قاربه صبر على سؤاله ، وذكر حوائجه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقته ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا عياب ، ولا فحاش ، ولا مداح : وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية - ولو كانت كراعا ويكافئ عليها ، قال أنس رضي الله تعالى عنه : « خدمت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين فما قال أف قط ، وما قال لشيء صنعته لم صنعته ، ولا لشيء تركته لم تركته » ، ولا دعاه أحد من أصحابه أو من أهل بيته إلا قال : ليك ، وكان يمازح أصحابه ولا يقول في مزاحه إلا حقا ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمساكين في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر : وما أخذ أحد بيده فيرساله بيده حتى يرسلها إلا أخذ ، ولم ير مقدما ركبته بين يدي جلس له ،

ويبتدىء من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة ، ويعزم عليه بالجلوس عليها ان أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم اليهم ، وكان لا يجلس اليه أحد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته واذا فرغ عاد الى صلاته ، وروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال « كان خدمة المدينة يأتون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الغداة » أى الصبح « فما يؤتى بأنية إلا غمس يده فيها ، وربما كان ذلك فى الغداة الباردة يريدون التبرك به »

وأما شففته ورحمته على أمته فذلك أمر مشهور ، وشواهدهم لا تحصى : وقد كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز فى صلاته رحمة بأمه ، ويكفى بالدلالة على ذلك أنه : ماخير بين أمرين الا اختار أيسرها ، فجزاه الله تعالى عنا كل خير

وأما خلقه بالوفاء ، وحسن العهد ، وصلة الرحم ، فهو شهير موفور ، وقد روى أنه وفد عليه وفد النجاشى ملك الحبشة الذى كان قد هاجر الى بلاده جملة من الصحابة فأكرم مشواهم : فقام صلى الله تعالى عليه وسلم يخدم أولئك الوفد بنفسه فقال أصحابه : نكفيك فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم ، وأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعده عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من

الرضا فقام فأجلسه بين يديه ، وقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم أنه : يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام مع علو منصبه ورفعة رتبته فكان أعظم الناس تواضعا ، وأعدمهم كبرا ، كان يقول : « إنما أنا عبد آكل كفايا كل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ، وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس مع أصحابه مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، وكان يدعى الى خبز الشعير فيجيب ، ويا كل مع الخادم ، وحج على رحل رث وعليه كساء من صوف لا يساوى أربعة دراهم ، وقد أهدي في ذلك الحج مائة بدنة ، وكان في بيته في مهنة أهله : يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويكنس البيت ، ويعاف البعير ، ويخدم نفسه ، ويحمل ما يشتري من السوق مع كثرة عبيده وخدمته وتشوق الناس لخدمته ، لكنه يحب فعل ذلك تواضعا وتشريعا

وأما عدله وعفته وصدق لهجته صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة منذ كان : اعترف له بذلك أعداؤه ، وكان يتحاكم اليه في الجاهلية قبل الاسلام ، وورد أنه : ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها ، وما خير في أمرين الا اختار أيسرهما ، لم يكن إنما ، فان كان إنما كان أبعد الناس ، وقد جزء نهاره ثلاثة أجزاء ،

جزءاً لعبادة ربه ، وجزءاً لمصالح أهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزء جزءه
بينه وبين الناس ، وكان يقول : أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغه ؛
فانه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمنه الله يوم الفرع الأكبر ، وقد
كان معروفاً بالصدق بين قومه من أول نشأته حتى دعوته بمحمد
الأمين ، وقال بعض المشركين بعد بعثته : إنا لانكذبك ولكن
نكذب ما جئت به فأنزل الله تعالى في القرآن المجيد قوله تعالى : « فانهم
لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

وأما وقاره وصمته وحسن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم : فقد
كان أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شئ من أطرافه ، وكان
كثير السكوت لا يتكلم من غير حاجة ، وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه
فصلاً : لا فضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له
واقترافاً به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، اذا تكلم أطرق
جلساؤه كأن على رؤسهم الطير ، وكان أحسن الهدى هديه ، وكان
سكوته على أربع ، على الحلم والحذر والتقدير والتفكير

وأما زهده في الدنيا فحسبنا منه تقلله منها ، واعراضه عن
زهرتها وقد سيقته إليه بجمالها ، وترادفت عليه فتوحاتها بما يسر الله
له : من الغنائم ، والأموال ، والأرزاق الواسعة الطيبة بحيث لو أراد
لتوسع فيها واقتطف زهرتها فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها
وحسبنا ما ورد أنه : ما شبع من خبز شعير يومين متواليين ، وما

ترك دينارا ولا شاة ولا بعيرا، ولم يترك إلا سلاحه وبغلة وأرضا جعلها صدقة ؟ وقد كان فراشه جلدا مذبوغا وحشوه ليف ، وكان ينام أحيانا على سرير من خوص النخل حتى يؤثر بحنبه الشريف عليه الصلاة والسلام ، وكان ينام جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء لجمع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، قالت إحدى نسائه : كنت أبكي رحمة له مما أراه ، وأمسح يدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسى لك الفداء ، لو تبلغ من الدنيا ما يقوتك ، فيقول : مالى وللدنيا إخوانى : من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم ، وأجزل ثوابهم فاستحى من الله أن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم ، ومامن شىء هو أحب إلى من الحقوق باخوانى وأخلائى ، وإذا أردنا استيفاء جميع أخلاقه الحميدة ، وعموم صفاته المجيدة احتجنا إلى تطويل لا يمتلئ هذا الكتاب المراعى فيه الاختصار وبما ذكرناه يظهر للعاقل المنصف المتدبر أن اختصاصه عليه السلام بتلك المحاسن وتحليته بهذه المكارم مع أنه تربى يتاما بين أمة جاهلية تغلب عليهم القسوة والجور ، وخشونة الطباع ، وعدم التهذيب : ما كان ذلك إلا بمحض عناية من الله تعالى به ، وإقامته بمنصب رفيع ، ومقام جليل ، ومن تكون فيه تلك الصفات الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقل الناقب ، والرأى الصائب ، ما كان يتابس بصفة

الكذب والاحتيال ، ويخدع الناس بزخارف المحال ، ويدعى افتراء على الله تعالى أنه رسوله قد اختاره واصطفاه على من سواه ، إنا نرى العاقل منا يمنعه عقله ، ويأبى عليه ضميره ، أن يكذب كذبة واحدة على رجل مثله أو دونه وتأنف نفسه الشريفة أن يقدم على ذلك ولو اضطره المحال : فكيف أن من كان عقله فى أعلى درجات السكال ، وهو متصف بأشرف الخصال ، يقدم بالكذب على الإله الكبير المتعال ، ويمارس ذلك على ممر الأيام والليالى ؟ معاذ الله أن يقدم على ذلك من له أدنى عقل وأقل كمال

ثم الغريب من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكل أحواله غريبة — وهو دليل على صدقه ، وأعانة الله تعالى له : أنه قلب حال الأمة التى قام بينها وهى أمة جاهلية ، مغموسة فى بحار الجهالات والضلالات ، فى العبادات والعادات : فرفعها من حضيض الرذائل إلى أوج الفضائل ، فبدل جورها بالانصاف ، وخشونتها باللين ، وجهلها بالعلم والعرفة ، وعداوتها بالمحبة والائفة ، ومحاربتها الجورية بالسلام والأمان ، وشقاءها بالنعيم ، وضلالها بالهدى إلى الصراط المستقيم ، وعصيانها بالطاعة ، وفرقتها بالجماعة ، وضعفها بالقوة ، وخيانتها بالاعانة ، وفحشها بالعفة والصيانة ، وقد كان عندها من حميد الشمائل الكريمة ولكنه مشوب بالنبذير والاسراف ، والشجاعة ولكنها معلولة بالجور والاعتساف ، فعدل عليه الصلاة والسلام خصالها

وهذب اخلاقها حتى اصبحت خير الأمم ، وأكرم العالم ، وسرى ذلك الى الأمم الأخرى التي اعتنقت دينه المبين ، فأصبحوا من خيار الصالحين ، وكل ذلك جرى على يديه عليه الصلاة والسلام بواسطة شريعته التي هي منهج السعادة ، وبجسّن سيرته وصفاء أخلاقه وكمال سياسته ، ولا شك أن ذلك منه كان أمرا خارقا للعادة يعد من أعظم المعجزات عند ذوى الانصاف ، وقد اشتبه على بعض الاجانب عن الدين المحمدي لما رأوا أن الجهاد مشروع فيه فظنوا أن هذا الدين ماتم أمره الا بالسيف والارهاب ، وهي شبهة باطلة علفت في فكر من لم يطلع على سيرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأول نشأته ، وقيام دينه المبين ، وأما من عرف ذلك فلا يجد لهذه الشبهة عينا ولا أثرا ، وبيان ذلك أن الذى ثبت نقله نقلا صحيحا في سيرته عليه السلام وبدء أمره أنه لما قام في دعوى الرسالة في مكة المكرمة كان وحيدا فريدا ، ليس صاحب سلطان ، ولا معتمدا على عصابة عشيرة ، بل انه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم : كان أول مكذب له عشيرته وعادوه أشد المعاداة ، وسلطوا عليه أشرارهم بالأذى والاضرار ، وهو ألزم طريق الهداية والارشاد : فصاريقيم البراهين على صدق دعواه ، ويورد المواعظ ، ويؤلف القلوب بكل ممكن ، ويأمر بأوامر شريعته المورثة الخير ، وينهى بنواهيها عن كل ، ايورث الضرر . ومضى له على ذلك مدة تبلغ عشر سنوات وهو

مقيم في مكة ولم يأمر باراقة قطرة دم لأعدائه ، بل يتلو قرآنه المشتعل على قوله تعالى: « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وقوله في خطاب من تبعه : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وقوله: « ومن كفر فعليه كفره » إلى غير ذلك من الآيات ، وهاجر من مكة إلى المدينة وهو ملتزم لهذه الطريقة مدة من إقامته في المدينة ، وقد اتبعه مع تلك الحال والطريقة الجم الغفير من أهل مكة وأهل المدينة ، وطوائف العرب ، كما يعلم من مراجعة سيرته : وقبلت شرعه العقول السليمة ، واستحسنته الطباع الصحيحة ولا خوف هناك ولا تهيب ، لكن لما ظهر للعقول السليمة ، والانظار القويمة ، أن المخالفون الذين لم يتبعوه عليه السلام لا يعمل معهم البرهان ، ولا تنفع فيهم الموعظة ، ولا يشر لديهم الارشاد ، بل هم فضلا عن ضلالهم وغشهم لأنفسهم ، بعدم قبول الدين الحق وسلك سبيل الاستقامة لا يفترون عن أذاه عليه السلام وأذى اتباعه كلما سنحت لهم الفرصة ، ينصبون لهم المسكائد ويقيمون في سبيل دينهم المعائر ، ويخترعون لهم بدائع الأضرار ، ويعاملونهم معاملة الأشرار ، ووجد أن دوام المعاملة بالرفق لاؤلئك المخالفين يزيد طغيانهم ، ويشوش أمر الدين على اتباعه أذن الله تعالى له عند ذاك بجهاد الأعداء ، والاختصاص باللداء ، والأغرار بالبداء ، استبدالا للترغيب مع هؤلاء الأشرار بالتهيب ، ونفا للأذى والفساد ، وقطعا

لجريمة العناد، اذ قد يسمح بالاثرار لسلامة الاختيار، ويقطع العضو المريض لوقاية صاحبه من البوار، ولكن شرع الله ذلك الجهاد في شريعة سيدنا محمد عليه السلام على حدود تبقى للرفق مجالا، وللشفقة والعدل منالا، حتى لو قوبل جهاده مع الجهاد المشروع في الشرائع المتقدمة كشرعية سيدنا موسى عليه السلام لوجد أن في جهاد شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تخفيفات لم توجد في سواه، يعلم ذلك من الاطلاع على شؤون الشريعتين، وفيما قررناه ظهر أن تلك الشبهة التي يزعم صاحبها أن الدين الحمدي قام بالسيف هي شبهة ظاهرة البطلان، مهدومة الأركان، والحق الحقيق بالقبول أنه ما كان أساس الهدى والسعادة لنا ولا سلافنا إلا بنور شريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وبهديه وارشاده، فجزاه الله تعالى عنا خير الجزاء، ورفع درجته في أعلى عليين، فعلينا معشر المسلمين مداومة محبته وتعظيم جنابه الشريف وفداؤه بالأرواح، ومن محبته عليه السلام تعظيم شرعه واطاعة أوامره، واجتناب نواهيه كما قيل:

* ان المحب لمن يحب مطيع *

وأما الشخص الذي يدعى محبته وهو مخالف لشرعه فخاله يكون مكذبا لدعواه، وشاهدا عليه بنجث الطوية، ومن محبته عليه الصلاة والسلام محبة أهل بيته وعترته، وتعظيم حملة شريعته وكرامهم والاحسان اليهم، ومن كمال محبته عليه الصلاة والسلام معرفة نسبه

الشریف من جهة أبيه ومن جهة أمه ، حتى قال بعض العلماء
بوجوب ذلك : فأما نسبه من جهة أبيه فهو : سيدنا محمد ، بن
عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، بن
حكيم ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن
مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمه ، بن مدركة ، بن الياس ، بن
مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ، وليس فيما بعده الى آدم عليه
الصلاة والسلام نقل صحيح : وأما نسبه صلى الله عليه وسلم من جهة
أمه ، فهو : سيدنا محمد بن آمنه ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ،
ابن حكيم ، فتجتمع معه عليه السلام في جده حكيم

ومن كمال محبته عليه السلام معرفة أسماء أولاده رضى الله تعالى عنهم
وهم سبعة على الصحيح : سيدنا القاسم ، وسيدتنا زينب ، وسيدتنا رقية ،
وسيدتنا فاطمة ، وسيدتنا أم كاظم ، وسيدنا عبد الله ، وهو الملقب
بالطيب والظاهر ، وسيدنا إبراهيم ، وكلهم من سيدتنا خديجة الكبرى
رضي الله تعالى عنها إلا سيدنا إبراهيم فمن مارية القبطية

ومن حسن الأدب مع حضرته عليه الصلاة والسلام اعتقاد
نجاة أبويه ، إما بالاعتماد على قول من يقول : بنجاة أهل الفترة الذين
كانوا قبل بعثة الرسول عليه السلام وهما من جملتهم ، وإما بالاعتماد
على ماورد في بعض الآثار أن الله تعالى أحياهما له حتى آمنا به وذلك
جائز داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى

واعلم أنه قد دلت النصوص الشرعية ، وانعقد اجماع الامة
المحمدية ، على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله
تعالى الى الناس كافة بل الى الثقيلين الانس والجن لا الى العرب خاصة
كما زعمه بعض الكفار ، وانعقد اجماع الامة أيضا على أنه خاتم الانبياء
 والمرسلين : لا نبي بعده ، فشرعه عليه السلام لا ينسخ الى آخر
الزمان ، أى لا يرفع بشرع سواه ، وسيدنا عيسى عليه السلام عند
نزوله الى الأرض فى آخر الزمان إنما يحكم بشرع نبينا عليه السلام
لا بشرع جديد ، وعدم قبول سيدنا عيسى عليه السلام للجزية هو
من جملة شرع نبينا عليه السلام لأن قبول الجزية فى الشرع المحمدى
غايتة الى نزول عيسى عليه السلام ، وقد انعقد اجماع ايضا على أن شرع
نبينا ناسخ لسائر الشرائع المتقدمة ، أى ناسخ أكثر أحكامها غير العقائد
منها ، وأما العقائد : كالايمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ورسله ،
واليوم الآخر ، فهى ثابتة فى سائر الشرائع ، وحكمة نسخ شريعة
هى اختلاف المصالح بحسب الازمنة ، مثلا المصلحة فى زمن الامم السابقة
اقتضت تكليفهم بشرائعهم ، والمصلحة فى زماننا الى آخر الدهر اقتضت
تكليفنا بشريعة نبينا ، وبهذا ظهر سقوط شبهة من يقول من الكفار
انه يلزم على القول بالنسخ ظهور مصاحبة كانت خفية على الله تعالى ،
اذ يقال له : ان الله تعالى من الازل عالم بمصلحة كل أمة وزمنها ، فرتب
قديم لكل أمة شريعة ؛ وأرسل رسولا لكل منها ، وجعل التأخرة

نسخة للمتقدمة فأين الخفاء على الله تعالى؟ وانعقد الاجماع ايضا على أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق أجمعين لا يفضلُه أحد من مخلوقات الله تعالى ، ثم الراجح عند العلماء أن الافضل بعد نبينا سيدنا ابراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، وهؤلاء الأربعة مع نبينا هم أولو العزم من الرسل ، ثم بقية الرسل ، ثم الانبياء غير الرسل ، وهم متفاضلون فيما بينهم عند الله تعالى ، ثم سيدنا جبريل ، ثم سيدنا ميكائيل من الملائكة ، ثم بقية رؤساء الملائكة ، ثم عوام البشر ، والمقصود منهم أولياؤهم غير الانبياء : كآبي بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، ثم عوام الملائكة ، وقد ثبت في الأحاديث النبوية أن قرنه عليه الصلاة والسلام أى أصحابه هم خير القرون المتقدمة والمتأخرة ما عدا الانبياء والرسل ، والصحابي هو من اجتمع بالرسول عليه الصلاة والسلام مؤمنا به ومات على ذلك ، وأفضل أصحابه عليه الصلاة والسلام خلفاؤه الأربعة على ترتيب خلافتهم : فأولهم فى الفضل أبوبكر الصديق ، ثم سيدنا عمر بن الخطاب ، ثم سيدنا عثمان بن عفان ، ثم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، وأفضل القرون بعد قرنه عليه الصلاة والسلام قرن التابعين وهم الذين اجتمعوا بالصحابة اجتماعا متعارفا ، ثم قرن أتباع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، ومما انعقد عليه اجماع الامة أن النبوة خصيصة من الله تعالى لا تكون مكتسبة للعبد ويفسرونها باختصاص العبد بسمع وحى من الله تعالى بحكم شرعى .

تكاليفي سواء أمر بتبليغه أم لا ، وكذلك الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، وأما الولاية فالأظهر عند العلماء فيها التفصيل ، فمنها ما هو مكتسب ، وهو امتثال الأمور واجتباب المنهيات ، وتسمى الولاية العامة ، ومنها ما هو غير مكتسب وهو العطايا الربانية : كالعلم اللدني ، ورؤية اللوح المحفوظ ، وغير ذلك

ولنتختم مبحث المعجزات ببيان بقية خوارق العادات ، فنقول : قد علمت أن الأمر الخارق للعادة إذا ظهر على يد مدعى الرسالة من عند الله تعالى أو النبوة يسمى معجزة ، فاما إذا ظهر للرسول قبل دعواه النبوة أو الرسالة — كما ورد أن سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تظله الغمامة قبل إرسال الله تعالى له وادعائه الرسالة فيسمى هذا ارهاصا ، أي تأسيسا للرسالة

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد ظاهر الصلاح والعدالة وليس عنده دعوى النبوة والرسالة فيسمى كرامة ، ونحن معشر المسلمين من أهل السنة والجماعة نؤمن بكرامات الأولياء ؛ لورود النصوص الشرعية بذلك ، ونقل الاخبار الكثيرة بوقوع خوارق العادات للكثير من الصالحين أكرمهم الله تعالى بها لأجل أن يحترموا بين الناس ، أو ليقبل ارشادهم وموعظتهم اذ أقامهم الله تعالى في مقام الارشاد ، أو لتفريج كربهم وقضاء مصالحهم اذا احتاجوا الى ذلك ، وكل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى عليهم ، ولا يجب عليه تعالى

شىء من ذلك ، والأولياء جمع ولى ، وهو العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الامكان ، المواظب على الطاعة ، المجتنب للمعاصي ، بمعنى أنه إذا ارتكب معصية بادر الى التوبة ، وليس المراد انه لا تقع منه معصية إذ ليس هو معصوما ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة ، وأما أصل التناول للذات المباحة فلا مانع منه لاسيما اذا كان بقصد التقوى على طاعة الله تعالى

وأما إذا ظهر الأمر الخارق للعادة على يد مستور الحال ، لا ظاهر الصلاح ، ولا ظاهر الفسق فيسمى معونة ، أى اعانة من جانب الله تعالى : وأما اذا ظهر على يد ظاهر الفسق فيسمى استدراجا ، بمعنى أن الله استدرجه باظهار ذلك على يده فيتمادى بفسقه ثم اذا أخذه الله تعالى لم يفله — والعياذ بالله تعالى

وهذه الأقسام من خوارق العادة تكون على وفق مقصد من تظهر على يديه ، وبقي قسم آخر : وهو أن يقع الأمر الخارق للعادة للمرء على خلاف ما يطلبه ، كما روى أن مسيلمة الكذاب الذى ادعى الرسالة في زمن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بصق فى عين رجل لتشفي فعميت الأخرى ، ويسمى هذا القسم من خوارق العادة خذلانا ، أى تكذيبا وخزيا من الله تعالى لذلك الكاذب

ولا اشتباه بين هذه الأقسام وبين المعجزة ، لأن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة ، أو النبوة — كما تقدم — موافقة لمقصد من

تظهر على يديه ، وغيرها ليس كذلك ، كما أنه لا اشتباه بين الكرامة التي تظهر على يد ظاهر الصلاح غير مدعى الرسالة أو النبوة موافقة لمطلبه وبين بقية الأقسام ، والله تعالى أعلم

الفصل الرابع

في بيان الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، والايمان بالكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله ، والقضاء والقدر اعلم أنه يجب على كل مكلف شرعا الايمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وهو أن يعتقد اعتقادا -بازما بوجودهم ، وأنهم عباد الله المؤمنون به المكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرن ، وقد وردت النصوص الشرعية بجميع ذلك ، وحقيقتهم عند أكثر المسلمين أنهم أجسام لطيفة ، أعطاهم الله تعالى القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مسكنهم السموات

وقد وردت النصوص الشرعية بما يفيد أنهم أقسام ، فمنهم حملة العرش ، ومنهم الخافون حول العرش ، ومنهم أكابر الملائكة : كجبريل وميكائيل ، واسرافيل ، ومنهم ملائكة الجنة ، ومنهم ملائكة النار ، ومنهم الموكلون ببني آدم ، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الموكلون بأحوال هذا العالم بالتدبير ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه بالوحي ،

ودلت النصوص أيضا على أنهم قادرون على الأعمال الشاقة العظيمة التي يعجز عنها ألوف البشر بل جميع البشر ، إلى غير ذلك مما ورد في حقهم في القرآن والاحاديث

وقد اتفق أئمة المسلمين - كما يؤخذ من الشفاء الشريف على عصمة المرسلين منهم بالوحي إلى أنبياء البشر كما عصم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولكن : اختلف العلماء في عصمة غير المرسلين من الملائكة ، وقال الفخر الرازي ، والجمهور الأعظم من علماء الدين على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، وقد تمسك المخالفون في عصمتهم بأمور ، منها أن إبليس كان من الملائكة فعصى الله تعالى وكفر ، ونحن نقول : إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة - كما حققه الإمام الرازي وغيره من العلماء ، ومنها قصة هاروت وماروت ، ونحن نقول : أما الآية التي وردت فيها وهي قوله تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملائكة بيابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » فالذي تلخص من كلام الإمام الرازي في تفسيره أن السحرة كثرت في ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة ، ويعملون تلك الأعمال السحرية معجزاتهم فبعث الله تعالى هذين الملائكة لئلا جل أن يعلم الناس أبواب السحر

حتى يتمكنوا من معارضة أولئك السحرة الذين يدعون النبوة كذبا ولا شك أن هذا من أحسن المقاصد ، فهذان الملكان كانا لا يعلمان احدا السحر حتى يبذلا النصيحة فيقولوا له انما نحن فتنة ، أى محنة يتميز بها المطيع من العاصي ، فهذا الذى نصفه لك من السحر وإن كان القصد منه أن يظهر به الفرق بين السحر وبين المعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفسد والمعاصي : فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة ، ثم ان القوم تعلموا منهما السحر واستعملوه فى الشر ، وإيقاع الفارقة بين المرء وزوجه ، ثم قال الرازى : واتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور ، يعنى وانما المحظور العمل به ، وتقدير الآية بهذا الوجه لا اشكال فيه ، ولا يدل على معصية الملكين المذكورين كما هو ظاهر ، بل يكونان قد امثلا أمر الله تعالى فى التعليم ، كما لا اشكال فى أنه كيف ينزل الله تعالى عليهم السحر المنهى عنه ، لأن المحرم هو العمل به لا تعلمه لأجل مقصد حسن ، وأما ما روى من أن هذين الملكين قد مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لأمرأة يقال لها الزهرة ، فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعالت منهما فنقول : ان هذه القصة قد اختلف العلماء فى صحة نقلها ، فقال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره

ان هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ، لأنه ليس في كتاب الله تعالى ما يدل على ذلك بل فيها ما يبطلها من وجوه ، ثم بين تلك الوجوه ، وقال الامام البيضاوى عن هذه الرواية : انها محكية عن اليهود ، وقال أبو السعود في تفسيره : انها مما لا يعول عليه ، لأن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ، وقال القاضي عياض في الشفاء الشريف : ان هذه الأخبار ، يعنى المذكورة في قصة هاروت وماروت لم يرو منها شيء ، لاسقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليس هو شيء يؤخذ بقياس وإذا علمت ذلك فنحن يسوغ لنا الأخذ بقول هؤلاء الائمة الاعلام ، والاعتماد على ما رجحوه في عدم صحة هذه الرواية ، ولا يجب علينا اعتقاد هذه القصة في هذين الملكين ، وعلى فرض صحة روايتها كما قال به بعضهم فنقول : لعلها من باب ضرب الأمثال والرموز كما ذكر احتمال ذلك البيضاوى ، وأبو السعود ، وبين شيخى زاده والسليكو فى حاشيتهما على البيضاوى كيفية ذلك التمثيل ، أولل الرواية فى هذه القصة هى حكاية لما قاله اليهود وزعموه من جملة أفاصيهم ، فبطلانه فى نفسه لا ينافى صحة الرواية التى حكته لنا عنهم ، وعلى هذا حمل السليكو فى قول البيضاوى : محكية عن اليهود ، وعلى كل فلا تعارض هذه القصة عصمة جميع الملائكة ، والله تعالى أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية ، ويجب الايمان به أن على كل عبد حفظه من الملائكة ، وكاتبين يكتبون أعمال العبد : من حسنات وسيئات ، وهذه الكتابة يكفر منكرها لتكذيبه القرآن قال تعالى : « كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » لكنها ليست لحاجة دعت إليها ، لاحاطة علم الله تعالى بكل شيء ، وانما فائدتها أن العبد اذا علم بها استحى وترك المعاصي ، والكتب حقيقى : بآلة ، وقرطاس ، ومداد ، يعلمها الله تعالى ، حملا للنصوص على ظواهرها ، مع عدم الاستحالة فى ذلك ، والله أعلم

ومما وردت به النصوص الشرعية أيضا وجود ملك يقبض الأرواح ، أى يخرجها من مقرها : فيجب الايمان بذلك ، وورد أن اسمه « عزرائيل » وأن له أعوانا بعدد من يموت : يترفق بالمؤمن ويأثيه بصورة حسنة ، بخلاف غيره ، وسند كرى فى الباب الثالث ان شاء الله تعالى الشبه الواردة فى شأن الملائكة فانظرها هناك ويجب على كل مكلف شرعا الايمان بالكتب المنزلة من الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فنؤمن بأن الله تعالى كتبها أنزلها على رسله ، وبين فيها أمره ونهيه ، ووعدده ووعدده ، وأفضل الكتب المنزلة القرآن ، ثم التوراة ، ثم الانجيل ، ثم الزبور ، وكلها كلام الله تعالى

واعلم أن كلام الله يطلق على معنيين ، المعنى الأول هو الصفة

القديمة القائمة بذاته تعالى التي ليست بحرف ولا صوت ، كما قدمناه
في بحث صفاته تعالى ، والمعنى الثانى هو الكلام اللفظى المنزل على الرسل ،
ومعنى أنه كلام الله تعالى أنه بمجرد الوحي وليس لأحد في أصل
تركيبه كسب ، وهو يدل على بعض ما تدل عليه صفة الكلام القديمة ،
لأنها تدل على جميع الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، كما
مر في بحث الصفات ، وهذه الألفاظ المنزلة على الرسل تدل على
بعض ما تدل عليه تلك الصفة القديمة فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا
من الصفة القديمة طلب إقامة الصلاة مثلا لفهم ذلك من قوله تعالى
في القرآن : « أقيموا الصلاة » وعلى المعنى الثانى يحمل قول السيدة
عائشة رضي الله تعالى عنها : « ما بين دفتى المصحف كلام الله » ومن
أنكر أن ما بين دفتى المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا أن يريد أنه
ليس الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ، ومع كون اللفظ الذى نقرؤه
حادثا ومخلوقا : لا يجوز أن يقال كلام الله أو القرآن حادث أو مخلوق
إلا فى مقام التعليم ، لأنه لا إطلاقه بالمعنى الأول على الصفة القديمة
ربما يتوهم أن هذه الصفة حادثة أو مخلوقة ، ولذلك ضرب الإمام أحمد
ابن حنبل رضي الله تعالى عنه وحبس على أن يقول بخلق القرآن
فلم يقل ، ثم اعلم أن جميع الكتب المنزلة قد نسخت بالقرآن تلاوتها
وبعض أحكامها ، والله تعالى أعلم
ومما يجب شرعا على كل مكاف الإيمان بالقضاء والقدر ، كما وردت

النصوص الشرعية بهما ، وكما أمرنا بالايان بهما فقد نهينا عن الخوض في مباحثهما ، ولكن لما كان الايمان بهما لا بد فيه من تفسير . معناها نقول : إن المنقول عن الماتريدية في تفسيرهما : أن القدر هو تحديد الله تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذي يوجد عليه : من حسن وقبح ، ونفع وضر ، الى غير ذلك ، أى علمه تعالى أزلا صفات المخلوقات فيرجع الى صفة العلم ، وأن القضاء إيجاد الله تعالى الأشياء على وفق علمه تعالى وتقديره لها في الازل ، فقد تبين أن القدر والقضاء راجعان الى تعلق العلم الالهى الازل بالأشياء وتعلق القدرة الالهية بها ، وهذا قد مر بيانه عند بيان ما يتعلق من صفات الله تعالى بالأشياء وما لا يتعلق ، ولكن لما كان خطر الجهل في فن التوحيد عظيما : صرح العلماء بوجوب الايمان بالقضاء والقدر ، ولا سيما أنه قد صرح بالايان بهما في صحيح الاحاديث

ثم اعلم أنه — وان وجب الايمان بالقدر لكن : لا يجوز الاحتجاج به لاقبل الوقوع توصلا الى الوقوع بأن يقول الشخص : قدر الله تعالى على الزنا مثلا ، وغرضه بذلك التوصل الى الوقوع في الزنا ، وللشرع الحجة عليه في ذلك ، إذ يقال له : من جانب الشرع وما أدراك أنه قدر عليك من الازل ذلك حتى تقدم عليه ؟ فاقدامك على الذنب ليس الا لهوى نفسك وباختيارك ، وبذلك تؤاخذ عليه ، ولا بعد الوقوع تخلصا من الحد الشرعى ونحوه ، بأن وقع شخص في الزنا مثلا وقال

قدر الله تعالى على ذلك وغرضه التخلص من الحد ، وللشرع الحجة عليه أيضا إذ يقال له : إنك أقدمت على الذنب ولا علم لك بتقديره عليك أزلا ، فاقدامك عليه ما كان إلا لهوى نفسك وجراءتك على الله تعالى ، وبذلك تؤاخذ ويجب عليك الحد ، والله تعالى أعلم

الفصل الخامس

في الايمان باليوم الآخر ، وما يشتمل عليه ، وبالبعث ، وما يتقدم ذلك : من أحوال الموت ، والقبر ، وما يتبع ذلك ، ورد الشبه التي ترد في هذا المقام

اعلم أنه مما يجب على كل مكاف شرعا الايمان باليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، وأوله من وقت الحشر ، وينتهي بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، والواجب الايمان به وبما يشتمل عليه ، كما يجب الايمان بما يتقدمه من العلامات التي ثبتت بالنصوص الشرعية ، وبما يتقدمه أيضا من قبض الروح ، وأحوال القبر ، وأمثال ذلك مما ثبت في النصوص الشرعية الصحيحة ، وتفصيل جميع ذلك فيما سيتلى عليك فنقول : —

قد وردت الآيات ، والأحاديث الصحيحة ، واتفق أهل السنة والجماعة أن لكل إنسان روحا جرت عادة الله تعالى أنها اذا كانت في جسده كان حيا وذا فارقت حله الموت ، وان عمر

كل انسان مقدر بتخصيص الله تعالى لايزيد ولا ينقص حتى المقتول
فانه ميت باجله فاذا انقضى اجل الانسان قبض روحه الملك الموكل
بقبض الارواح ، وهو ملك من اكابر الملائكة يسمى « بعزرائيل »
فهو يقبض الروح ، أى يخرجها من مقرها ، ثم بعد وضع الانسان
فى قبره يعيد الله تعالى اليه الروح ، ويرد اليه من الحواس والعقل
ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ثم يأتية
فى تلك الحالة مكان ويسألانه عن معتقده ، والحكمة فى هذا السؤال
أن يظهر لدى الملائكة المؤمن والمطيع وغيرهما ، ويترتب على ذلك ،
اما تنعم الميت فى قبره ، واما عذابه ، ويستثنى من هذا السؤال من
وردت الاحاديث باستثنائه : كالانبياء وغيرهم ، كما هو مبسوط
فى كتب الاحاديث ، ثم ان الميت إما أن يتنعم فى قبره ان كان مؤمنا مطيعا
واما أن يعذب ، والمعذب إما أن يدوم عذابه الى يوم القيامة ، وإما
أن ينقطع كما فى بعض عصاة المؤمنين ، ومن أحوال القبر ضغطته ،
وهى النقاء حافتيه على الميت ، ولا ينجو منها أحد إلا من استثنى
فى الاحاديث : كالانبياء

ثم اذا تصرم الزمان ، وقرب يوم القيامة ظهرت له علامات ،
منها العلامات الصغرى التى ظهر منها فى هذا الزمان الكثير ، ومنها
العلامات الكبرى وهى عشر : ظهور المهدي ، وخروج الدجال ،
ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ، وخروج ياجوج وماجوج ،

وخروج الدابة التى تكلم الناس، وطلوع الشمس من مغربها، وظهور الدجال : ويمكث فى الارض أربعين يوماً، يصيب الكافر حتى يصير كالسكران، ويصيب المؤمن منه كهيئة الزكام، وخراب السكينة على يد الحبشة بعد موت عيسى عليه السلام، ورفع القرآن من المصاحف والصدور، ورجوع أهل الارض كلهم كفاراً

ثم ينفخ فى الصور النفخة الاولى فيموت أهل الارض والسموات، والصور هو شيء كالقرن كبير جداً ينفخ فيه سيدنا « اسرافيل » أحد كبراء الملائكة، ثم بعد مضي زمان طويل - والخلائق موتى - ينفخ فى الصور مرة أخرى : فيبعث الله تعالى الموتى من قبورهم، ويحشرهم الى الموقف ؛ وهو الموضع الذى يقفون فيه لفصل القضاء واجراء حسابهم، ومن أهوال الموقف طول الوقوف فيه، وذنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون على قدر الميل، وخوضهم فى العرق الذى هو أثنى من الجيفة، ويكون خوضهم فيه على قدر أعمالهم حتى ان بعضهم يلجمه العرق إجماماً، وسؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتقريطهم فيها وشهادة أعضائهم وجلودهم والارض والحفظة الكرام عليهم، ولا يصيب شيء من تلك الأهوال الانبياء والاولياء وسائر الصالحاء

ثم بعد اشتداد هول الموقف يشفع سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم « الشفاعة العظمى » وهى شفاعته فى فصل القضاء بين

جميع الخلائق عند ما يشتد الهول عليهم ، ويطول وقوفهم ، فيستشفعون به فيشفع لهم عند ربه في ذلك ، وبعد ذلك له شفاعات كثيرة ، منها شفاعة في ادخال قوم الجنة بغير حساب ، ومنها شفاعة في عدم دخول قوم النار لقوم استحقوا دخولها ، ومنها في اخراج العصاة الموحدين من النار ، ومنها في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها ، ومنها غير ذلك كما جاء في الأحاديث الشريفة ، ويشفع غيره عليه السلام : من الانبياء والرسل ، والملائكة ، والصحابة ، والشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء

ويأخذ العباد صحفهم ، وهي كتبهم التي كتبت فيها الملائكة ما فعلوه في الدنيا ، وتوزن أفعال العباد بميزان ، وجمهور المفسرين على أن الموزون هي الكتب التي اشتملت على أعمال العباد ، بناء على أن الحسنات مميزة بكتاب والسيئات بآخر ، ويجب علينا الايمان بالوزن والميزان ، وتقويض علم حقيقة ذلك الى الله تعالى ، وتحاسب الخلائق أى يوقف الله تعالى الخلائق على أعمالهم خيرا كانت أو شرا ، قولا كانت أو فعلا تفصيلا بعد أخذهم كتبها ، ويكون الحساب للمؤمنين والكافرين ، ويستثنى من ذلك من وردت الأحاديث باستثنائه ، ثم يمر الخلائق على الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم يمر عليه الأولون والآخرون ، وهو طريق الناس الى الجنة ، فالمؤمنون الطائعون والذين غفرت سيئاتهم يرون عليه ويخلصون الى الجنة ،

والكفار وبعض عصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب في جهنم مدة يسقطون في نار جهنم في حال مرورهم على الصراط ، ومرور الناجين مختلف في السرعة والبطء ، حسب مقاماتهم ، والحكمة في المرور على الصراط ظهور النجاة من النار ، وأن يتحسر الكفار بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم في المرور ، ومما اشتمل عليه يوم القيامة وجود حوض عظيم لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يرده المؤمنون ويشربون منه عند العطش الأكبر

ثم ان الله تعالى خلق دارين عظيمتين : احدهما دار النعيم وهي الجنة وفيها من النعيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وثانيتهما دار العذاب وهي جهنم أعد الله تعالى فيها من العذاب للكفار والعصاة ما ترجف عند ذكره القلوب وتتشعر الجلود : أعادنا الله تعالى منها ، وهاتان الداران مخلوقتان وموجودتان كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث ، وبعد انقضاء حساب الخلائق ومرورهم على الصراط يدخل الجنة المؤمنون الطائعون من جميع الأمم وعصاة المؤمنين الذين غفرت سيئاتهم أو أدركتهم شفاعة ، ويدخل جهنم الكفار وعصاة المؤمنين الذين حكم عليهم بالعذاب مدة ، أما الكفار فلا يخرجون منها أبدا ، وأما العصاة المؤمنون فما لهم الخروج منها ودخول الجنة بعد انقضاء مدة عذابهم أو نوالهم شفاعة ، ثم يدوم أهل الجنة خالدون في الجنة ، وأهل

النار الكفار خالدين في النار أبد الآبدين . ودهر الدهرين ، وكل ما مر فقد ثبت بالآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجب الايمان به على كل مكاف شرعا والله تعالى أعلم

توضيحات يندفع بها بعض الشبه

الواردة على مامر في هذا المقام

اعلم أنه قد ترد بعض الشبه على بعض ما ذكر هنا في هذا المقام . ولكن هي عند من يؤمن بوجود الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وواسع علمه ، ويعتقد أن الله تعالى هو الذي اوجد هذه الاكوان من العدم ، وصورها على صور تشتمل على دقائق الحكم ، لا يصعب عليه الايمان بجميع مامر ، ولارد تلك الشبه عن عقيدته بقاطع البرهان وواضح التبيان ، واما من لم يكن مؤمنا بوجود ذلك الاله العظيم فالصواب في حقه أولا أن تقام له الادلة على وجوده تعالى ، ثم بعد ذلك تكشف شبهته في أمثال هذه العقائد ، وتوضح رد تلك الشبه أن يقال : إن الذي ثبت في النصوص الشرعية أن للانسان روحا تتعلق بجسده ويتسبب عنها حياته واذا فارقت بقبض الملك لها حله الموت ، فبعض علماء الاسلام خاض في البحث عن حقيقة هذه الروح ولكن لم يقم معه برهان قاطع شرعى أو عقلى على بيان حقيقتها ، وبمضهم — وهم أهل الطريق الأسلم — ترك الخوض في هذا البحث اذ لم يرد عن الشارع دليل على حقيقتها بل قد ورد في الشرع ما يشير إلى أن ترك البحث

عن حقيقتها هو الأولى ، وعلى طريقة هؤلاء العلماء يكفي في تصديق النصوص الشرعية الواردة في وجود الروح أن يعتقد المكلف أن لكل انسان روحا ، وهي شىء موجود الله أعلم بحقيقته ، وليس في القول بوجوده ما يخالف العقل ، وعدم الاحساس به كما يقول بعض الجهلة : بأننا لا نرى شيئا يخرج من قم الميت عند موته لا يقتضى عدمه ، إذ ربما يكون عدم الاحساس به للطافته كالهواء ، أو كالأثير الذى يقول به الطبيعيون المتأخرون أو لدقته جدا كالحيوانات الصغيرة جدا التى توجد في المياه ، وكثير منها لا يرى حتى بالجسمات للمرئى ، أو لغير ذلك ، وكونه بتلك اللطافة أو الصغر وتنشأ عنه الحياة لا غرابة فيه ، فكم من عقار ونبات لطيف أو صغير جدا تنشأ عنه حوادث عظيمة لا تحدها العقول ، وكذلك شرارة النار اذا لامست كمية كثيرة من الأجسام القابلة للالتهاب ، وكما في الجزء الصغير من السم إذا دخل الجسد وما يحدث عنه ، وأمثال ذلك كثير مما هو لطيف أو صغير تنشأ عنه حوادث عظيمة ، فلا غرابة في تسبب الحياة في الجسد عن الروح ، وان كانت أمرا لطيفا أو صغيرا جدا لا سببا ان الحياة لا تنشأ عن الروح بطبيعتها بنى بخلق الله تعالى والروح انما هى سبب عادى فلا اشكال في ذلك أصلا ، ثم وان تكن الروح بتلك اللطافة أو الصغر فلا مانع من أن يجعل الله تعالى لأملاك قدرة على قبضها وإخراجها من الجسد ، ألا ترى المغناطيس قد جعل الله تعالى فيه خاصية جذب الحديد فيجذب

الطف وأدق برادة منه ولو لم تر بالعين ولا بمجسمات المرئي ، وكل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فلا شيء يوجب الاشتباه

ثم لما وردت نصوص الشريعة بوجوب اعتقاد البعث ، أي أن الله تعالى يعيد الأموات يوم القيامة ويحييهم ، كان المشركون في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام يوردون الشبه على القول بالبعث ، ويقولون : كيف يحيي الله تعالى الأموات بعد مفارقتهم الحياة وفنائهم وتفرق أجزائهم بين أجزاء الأرض ؟ فكان القرآن الشريف يرد عليهم تلك الشبه في آيات كثيرة بما معناه : ان الله تعالى تام القدرة ، كامل العلم ، لا يعجزه شيء مهما كان عظيما ، ولا يخفى على علمه شيء مهما كان دقيقا خفيا ، والذي أوجد الكائنات من العدم بذلك الاتقان والاحكام هو قادر على إعادة الأموات بعد الفناء ، واحيائهم للحساب والجزاء ، ويضرب لهم سبحانه الأمثال التي تقرب ذلك لعقولهم : بأن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بانزال المطر عليها فتصبح مخضرة مزهرة بهجة بعد أن كانت قاحلة يابسة لا ترى فيها أثرا للحياة إلى غير ذلك من الأمثال التي ترفع عنهم شبه البعث التي قامت عندهم

ثم ان علماء الشريعة الأعلام ، لما وجدوا للفلاسفة المنكرين للبعث شبرا أخرى ، يزعمون فيها حصول محالات عقلية على القوال بالبعث قال أولئك العلماء — رحمهم الله تعالى : ان الواجب شرعا على كل مكلف أن يعتقد بحصول البعث والاعادة ، وان ذلك يحصل

على وجه لا يستلزم محالا عقليا ، والله أعلم بكيفية ذلك ، ولا يلزمنا لصحة الايمان بالبعث أن نبين الكيفية التي يجريها الله تعالى في أمر البعث ، بل نفوض علمها اليه تعالى ، ولكن للمحافظة على افكار الضعفاء في الدين من الاضطراب نقول في توضيح ذلك : من الممكن أن المعاد من الجسم بالبعث هو جميع أجزائه الأصلية ، أى الباقية من أول العمر إلى آخره لا الاجزاء الفضلية التي تتكون في الجسم من الاغذية ثم تتحلل ويخلفها غيرها وهلم جرا ، وإذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن الله تعالى العظيم القدرة الواسع العلم يحفظ تلك الأجزاء الأصلية للانسان بعد موته من التفرق ، ومن زوال صورتها ، ومن دخولها في أجزاء أصلية لحيوان آخر يا كل انسانا ، وان دخلت في تركيب الاجزاء الفضلية لذلك الحيوان فتتفصل عنها عند انحلالها بموت ذلك الحيوان ، ثم عند الاعداد والبعث يعيد الله تعالى تعلق الروح بتلك الاجزاء الأصلية للانسان ويضم اليها أجزاء فضلية يكمل بها مقدار الانسان وهيكلاه كما كان قبل الموت سواء كانت تلك الاجزاء عين ما كانت قبل موت الانسان أو غيرها ، ويكون الاحساس بالتنعيم والتعذيب انما هو لمجموع الروح ولهذه الاجزاء الأصلية . ويصدق على هذه الكيفية انها اعادة ؛ إذ قد أعيد تعلق الروح بالاجزاء الأصلية التي هى حقيقة الانسان بعد أن فارقتها ، وأعيد لهذه الاجزاء الأصلية الحياة ، وأعيدت اليها أجزاء ، فضلية كل

بها هيكل الانسان الذى كان قبل الموت ، واذا كان الحال كذلك فلا يقال من شبه أولئك الفلاسفة : ان الانسان المنعم أو المعضب هو غير الذى كان قبل الموت ، ولا يقال : ان الروحين تتعلقان بجسد واحد فيما اذا أكل انسان انسانا وصارا بالاغتذاء واحدا ، ولا يقال ان مادة واحدة حاصلة لأناس كثيرين حيث إن المشاهد على ظاهر الارض أجزاء جثث الموتى القديمة ، وقد زرع فى الارض زروع كثيرة ، وغرس فيها أشجار واغتذى منها الناس ، وانهقد ذلك فى أبدانهم لحما ودما ، لأننا مع جميع ذلك نقول : ان الاجزاء الاصلية التى كانت مع الروح المتعلقة بها قبل الموت انسانا هى بعينها مع الروح المتعلقة بها عند البعث ذلك الانسان بعينه ، وقدرة الله تعالى وعلمه يصلحان لاجراء هذه الكيفية التى لا تتضمن محالا أصلا ، وعدم احساسنا بها لا يستلزم عدمها ، إذ يحتمل أننا نشاهد تفرق الاجزاء الفضلية ، ولا نشاهد الاجزاء الاصلية التى هى حقيقة الانسان ، اما لدقتها ، واما لطافتها ، واما لغير ذلك : وكما من العوالم لم تنزل فى حين الخفاء ، محجوبة عن حواسنا ، ولا مانع أن تكون هذه من هذا القبيل ، والمملخص أن نصوص الشريعة نطقت بالاعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ، ونعتقد أنه سيكون على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وان احتجنا إلى هذا البيان نجد أن مثل تلك الكيفية التى

قررناها كافية وافية في اقناع العقول ، ودفع الشبه ، كما لا يخفى على المتأمل النصف ، وان كنا غير مكلفين باعتقاد هذا التفصيل الذى شرحناه ، بل الذى نكلف به الايمان بالبعث على وجه لا يستلزم محالا كما تقدم ، ثم نقول : وفي القول بالاجزاء الاصلية التى مر شرحها ، تندفع الشبه عن نعم القبر وعذابه اللذين وردت بهما النصوص الشرعية اذ يقال : ما المانع ان الله تعالى يجعل للروح تعلقا خاصا بتلك الاجزاء الاصلية بحيث تحس بالنعيم أو العذاب وهى فى القبر ، ونحن وان كنا نشاهد الجسد قد تفرق وتلاشى ولا حياة فيه فتلك الاجزاء الاصلية يجرى فيها التنعيم والتعذيب ، ولا نرى شيئا من ذلك لحقائها عن أبصارنا ، لدقتها ، أوللطافتها ، وكذلك تندفع الشبه الواردة على ما جاء من نصوص الشريعة أن بعض الناس هم أحياء عند ربهم يرزقون كالشهداء ، فانه يقال أيضا لا مانع أن الله تعالى يجعل لأرواحهم تعلقا خاصا بأجزائهم الاصلية بحيث تكون حية حياة تقبل الرزق والتنعيم بنوع مخصوص ، هو الذى اخبرت عنه النصوص ؛ وان كنا لانرى ذلك ، وكل ذلك من الجائزات العقلية التى لا تستلزم محالا وداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، ومن اطلع على ما يقوله المتأخرون من الطييعين فى أحوال الحيوانات الصغيرة التى لا ترى الا بأكبر المجسمات للمرنى من أن لها ادراكا واحساسا وسعيا على معاشها واحتراسا على حياتها ، ومقاتلة بعضها لبعض ، واحتياالا على تحصيل رزقها

وغير ذلك لم يستبعد ما قررناه في حق الأجزاء الأصلية للإنسان وقبولها لتعلق أرواحها بها واحساسها بما يريد الله تعالى لها من نعيم أو عذاب من غير أن نشعر نحن بشيء من ذلك . والله على كل شيء قدير

ثم ما ورد من أن أعضاء الخلق وجلودهم والارض تشهد عليهم هو من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى كما تقدم توضيح نظيره في بيان معجزات الرسل : من أن منها نطق الجمادات ، فحيث أن الله تعالى هو الخالق لصفة الكلام في الإنسان ولا يتوقف خلقه لها على حياة ولا غيرها كما أقيم على ذلك البرهان ، فلا مانع أنه تعالى يخلق في تلك الأشياء الكلام ، وتشهد على العصاة بأعمالهم ، وحكمة ذلك تخويف العباد من ارتكاب المعاصي عند ما تنبهرهم الرسل أن أعضاءهم وجلودهم والأرض التي يعصون عليها تشهد عليهم يوم القيامة ، وأيضا اظهار عظمة قدرة الله تعالى في ذلك اليوم وظهور بالغ حجته على العباد « والله الحجة البالغة »

ثم ان الصراط الذي يمد على متن جهنم لم يرد الناس عليه ، كما تقدم شرحه ، ليس فيه شيء يستبعده العقل ، لكن في بعض روايات وردت في وصفه ليست من الروايات المتواترة ، وإن اشتهرت أن الصراط يكون أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وهذه الكيفية

قد يسببها بعض الضعفاء وان كانت من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة القادر العظيم ، ومع ذلك فقد نازع في صحة ذلك بعض العلماء الاعلام : كالز بن عبد السلام ، والشيخ القرافي ، والبدر الزركشى ، كما نقله الباجورى على « الجوهرة » قالوا : وعلى فرض صحة تلك الرواية فهو محمول على غير ظاهره ، بان يؤول بانه كناية عن شدة المشقة ، زاد القرافي أن الصحيح أن الصراط عريض وله طريقان يمينى ويسرى : فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال ، وعلى هذا التقرير فلا إشكال يبقى هنا حتى على أفكار الضعفاء ، ويكفى المكاف الايمان بوجود الصراط ولو على هذه الكيفية والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم فى العلامات الكبرى ليوم القيامة طلوع الشمس من مغربها ، والذي ورد فى ذلك الحديث الشريف أنها تطلع من مغربها حتى تتوسط السماء ثم تعود فتغرب فى جهة المغرب وتستمر بعد ذلك على عادتها الاصلية ، وهذا من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى وعظيم قدرته لا يصعب عليه الايمان بذلك ، وقد مر توضيح جواز هذا الأمر فى نظيره من وقوف الشمس ورجوعها . معجزة لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسيدنا يوشع عليه السلام عند بيان معجزات الرسل وقررنا ذلك هناك بأوضح بيان : فارجع اليه ان شئت فى فصل المعجزات ، والله تعالى أعلم

ثم مما تقدم أيضا من تلك العلامات خروج يأجوج ومأجوج ، وهما
أمتان عظيمتان قد جاء ذكرهما في القرآن الشريف ، وإن ذا القرنين
سد عليهما طريق خروجهما من أرضهما بالسد الذي اصطنعه ، وأن
ذا القرنين قال ما معناه : إن هذا السد إذا جاء وعد ربي جعله دكاء
أي منهدهما ، وفسر المفسرون مجيء وعد الله بمجيء يوم القيامة ، أي
قربه ، وقد جاءت أحاديث صحيحة بتفصيل خروج يأجوج ومأجوج
في آخر الزمان ، وإن ذلك من علامات القيامة الكبرى فوجب على
كل مكلف الإيمان بذلك ، وما يقال من أن علماء الجغرافيا قد ساحوا
الأرض ولم يعثروا على محل يأجوج ومأجوج ، فهو كلام لا يمنع
صدق تلك النصوص الشرعية الواردة بوجودهم في الأرض ، وبيان
ذلك أنا نقول أولا : لا نسلم أن الجغرافيين ساحوا جميع بقاع الأرض
ولم يدعوا بقعة منها إلا وردوها ، وإنما ساحوا البقاع المسكونة أو
القريبة منها ، وكم من بقاع كثيرة ، وأودية ، وجبال توجد في أطراف
الأرض لم تطأها أقدامهم لاسيما في الأطراف الشمالية خلف جبال
الجليد ، ونهاية المنطقة المنجمدة الشمالية كما يعلم ذلك من الاطلاع على
شروحهم المسطورة في كتبهم ، ولعل هاتين الأمتين توجدان
في بعض بقاع الأطراف التي لم يصل إليها أحد من أهل الجغرافيا ،
وثانيا قد قال علامة المفسرين الامام الرازي رحمه الله تعالى : إن
الأظهر أن موضع السد في ناحية الشمال ، ولا يخفى على العارف

بتخطيط الأرض أن جهات الشمال بعد سيريا توجد جبال جليدية لا تنقطع عنها الثلوج في جميع الفصول ، ولا يمكن لأحد في هذه العصور سلوكها ، ومن المعلوم أيضا أنه يوجد بعدها مسافة من الأرض ممتدة إلى انتهاء الأرض وحيث نقول : ما المانع أنه يوجد خلف هذه الجبال أراض منخفضة عنها بحيث يتسبب عن انخفاضها خفة الثلوج عنها بحيث تصلح لسكنى البشر ، وأن يكون يا جوج وما جوج سا كنين في تلك الاراضى المنخفضة ، ومن الجائز أن يكون في زمان ذى القرنين الذى مضى عليه الى هذا الزمان ألوف من السنين يوجد واد منخفض موصل لتلك الاراضى وطريق لها ، وكانوا يخرجون منه ثلاثهم المجاورين لهم خارج تلك الجبال ويقاثلونهم فسد عليهم ذوالقرنين مسلك ذلك الوادى وحصرهم خلف تلك الجبال ، وصاروا غير قادرين على الخروج من الوادى لوجود السد ، ولا يمكنهم تسلق الجبال لوجود الثلوج عليها ، ثم بعد ذلك حدثت حوادث جوية ، وتتابع نزول الثلوج عليها حتى سدت ذاك الوادى وملأته حتى ساوته بالجبال التى حوله وخفى أثره ، ثم عند قرب يوم القيامة يذوب الثلج منه بأسباب جوية أو أرضية كالزلازل ويتيسر للأمم المذكورتين هدم السد والخروج من ذاك الوادى طبق ما جاءت به النصوص الشرعية ، ووجود الحوادث الجوية التى توجب تراكم الثلوج فى بعض الأماكن ماث من السنين ثم زوالها بأسباب أخرى غير مستحيل لا عقلا

ولا عادة ، بل اذا فتشنا التاريخ نجد لذلك شواهد ظاهرة كثيرة على وجه الأرض ، وقدرة الله تعالى صالحة لأجراء تلك الأعمال كلها واتمام ذلك التدبير ، وحيث كان ذلك جائزا داخل تحت تصرف القدرة الالهية ، وقد وردت النصوص بخروج هاتين الالمتين فى آخر الزمان فنحن نؤمن بذلك ونصدق به ، وبما قررناه ارتفعت الشبهة التى مستندها سياحة الجغرافيين

هذا : وأما ما يذكر فى بعض الكتب أن محل يأجوج ومأجوج فى المحل الفلانى من الأقاليم القريبة المعمورة ، وأن الملك الفلانى الأموى أو العباسى أرسل إلى السد من نظره إلى غير ذلك من الأخبار ، فهى من تأليفات القصاص : لا أصل لها يعتمد عليه ، وإن اختلف بنقلها بعض المؤلفين ، والله تعالى أعلم

ثم مما ذكر فى تلك العلامات ليوم القيامة نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء ، وهو أمر جائز عقلا كما أن صعوده إلى السماء عند ما طلبته اليهود لتقتله هو أمر جائز أيضا ولا يترتب على ذلك أدنى محال ، فما المانع أن الله تعالى يصعده وينزله بواسطة الملائكة الذين أعطاهم الله تعالى القدرة على الصعود والهبوط بهن السماء والأرض كما يأتى بيان ذلك ويحفظ الله تعالى حياته من جميع ما ينوهمه المتوهمون فى حق من يصعد إلى فوق كرة الهواء ، فإن احتياج الإنسان لتنفس الهواء ما هو إلا أمر عادى والله تعالى قادر على حفظ الحياة

بدونه ، وكذلك من تلك العلامات خروج الدابة التي تكلم الناس ، هو أمر جائز والله تعالى قادر على إعطاء الدابة صفة الكلام ، وكذلك وجود الدخان في الأرض أربعين يوما كل ذلك من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف القدرة الإلهية لا شيء من ذلك يستلزم محالا ، فنؤمن بجميع ذلك ، ونصدق به والله تعالى حكم في جميع ما تقدم : من أحوال البعث ، والسؤال ، والميزان والصراط ، وغير ذلك نجد كثيرا منها مذكورا في مطاوى كلام علماء الاسلام ، والله يتولى هداانا أجمعين

ولنختم هذا الباب بذكر أدلة عقلية على حصول البعث والجزاء وهي وان لم تكن برهانية قاطعة فهي اقناعية تدعن عندها العقول ، وتطمئن لها القلوب ، وبتواردها بمجموعها على الفكر : يجزم العقل بوقوع البعث والجزاء ، ولا يعير للشك اذنا صاغية

اعلم أن البعث والجزاء وإن كان المشهور أن دليل جوازها عقلي كما علمته مما مر ، ودليل حصولها بالفعل شرعي ، وهو النصوص الشرعية الواردة في القرآن الشريف ، والحديث المنيف . لكن إذا دقق النظر وجد أن لحصولها دلائل عقلية اقناعية تطمئن لها القلوب ، كما قلنا ، فاستمع ما يتلى عليك من كلام العلماء الأعلام في ذلك فنقول : — إنه بعد إقامة البراهين القاطعة على وجود إله العالم ، واتصافه بصفات الكمال : من الحكمة ، والعدل ، والرحمة الخاقه : لا شك أن

كل معتقد لذلك يظهر له أن من حكمته تعالى وعدله بعد أن خلق الخلق ، وأعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقيح ، وقدرها بها يقدرون على الخير والشر أن يمنعهم عن سوء اعتقادهم به ، وعن الجهل والكذب ، وإيذاء الصالحين من خلقه ، وغير ذلك ، من القبائح ويرغبهم في عمل الخير واتصافهم بالأخلاق الفاضلة التي ينتظم بها معاشهم ، ومن المعلوم أن هذين الأمرين لا يتمان إلا بربط عمل الخير بالثواب وعمل الشر بالعقاب ، وكل من الثواب والعقاب غير حاصل في دار الدنيا ، فلا بد من دار أخرى يحصل فيها ذلك ، ولا يقال : إنه يكتفى في الترهيب والترغيب بما أودع في العقول : من تحسين الخيرات ، وتقبيح المنكرات ، لأن الهوى ، والنفس يدعوان الإنسان إلى الانهماك في الشهوات الجسمية ، واللذات الجسدية ، وإذا حصل هذا حصل هذا التعارض بين ما تدل عليه العقول ، وبين الهوى والنفس فلا بد من مرجح قوى ، ومعاخذ كامل ، وما ذلك إلا ترتيب الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب على الفعل والترك ثم من حكمة السلطان الحكيم الرحيم أن يبعث نفوس رعيته للعطف على الفقراء ، ليعينوهم بشيء من الأموال على مصالح معاشهم ، واللائق بالاغنياء أن تكون تلك الاعانة منهم على وجه الرغبة ، وانشراح الصدر ، وبذلك يصالح حال الفقراء ، ويندفع عنهم الشقاء ويفارقهم الغناء في الجملة ، وحيث إن النفوس مفطورة على حب

المال ، ولا تسمح بصرف شيء منه إلا إذا وجدت عوضا هو خير منه ، فكان من حكمة الله تعالى أن يجعل دارا غير هذه الدار يكافئ فيها بالخير المتصدقين على الفقراء والمساكين ، ويجازى ما نعى الصدقات والزكوات بما يستحقون ، فاذا علم الأغنياء بوجود دار أخرى ، وأهم يكافؤن فيها على الصدقة بعشر أمثالها فحيث ينفقون على الفقراء والمساكين برغبة وانشرح صدور ، لما يرجونه من نوال الأجور، بل : يرغبون أيضا في الصدقات الجارية التي لاتنقطع فيرصدون الأوقاف الجسيمة ، ويشيدون للصلوات ، والاذكار ، واطعام الطعام ، المساجد ، والزوايا ، والتكايا العظيمة فينتج عن ذلك من الخيرات ما لا يدخل تحت المحصر ، وكل ذلك ناشئ عن الرغبة في نعيم الدار الآخرة ، والنجاة من عذابها ، ولولا ذلك لما كان من تلك المآثر الخيرية إلا أقل القليل

ثم ان السلطان العادل الحكيم الرحيم اذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء : كان من حكمته ، وعدله ، ورحمته : أن يتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى ، والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم ، فمن حكمته وعدله ورحمته أن يتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار ، لأننا نرى المظلوم قد يبقى فيها مهانا في غاية الذلة والقهر مسلوب المال ، مفضوح العرض ، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة

فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف

ثم انه لو لم يحصل للانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف، وبيان ذلك: أن مضار الانسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات ؛ فان سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والاسقام تكون فارغة البال ، طيبة النفس ؛ لانه ليس لها فكر وتأمل، أما الانسان فبسبب ماله من العقل يتفكر أبدا في الاحوال الماضية ، والاحوال المستقبلية ، فيحصل له بسبب أكثر الاحوال الماضية أنواع من الحزن والاسف، ويحصل له بسبب أكثر الاحوال الآتية أنواع من الخوف ، فثبت أن حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا ، والآلام النفسانية الشديدة القوية ، أما الازدات الجسمانية فهي مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات ، لان السارقين في مذاق الجمال طيب ، كما أن أفر الحلويات في مذاق الانسان طيب فلو لم يحصل للانسان معاد : به تكمل حالته ، وتظهر سعادته لوجب أن يكون كالعقل سببا لمزيد الهموم ، والغموم ، والاحزان ، من غير جابر يجبر ذلك ، ومعلوم أن كل ما يكون كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة ، والدناءة ، والشقاء ، والتعب الخالية عن المنفعة ، فثبت أنه لولا حصول السعادة الآخروية لكان الانسان أخس الحيوانات ، حتى الخنافس ، والديدان ، ولما كان ذلك باطلا قطعاً ، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة ، والانسان خلق للآخرة لا للدنيا : نعم

ان هذه الدار هي كالميز بين الاخيار والاشرار ، ليجزى الاولون بالاثواب والآخرون بالعقاب ؛ لان كل من كان شريرا فالتار أولى به ، ويكون حظه من الوجود ما يحصله من لذات هذه الدار الفانية ، فلذلك نراها موفورة لكثير من أهل الزبغ الاشرار ، منغصة على كثير من أهل الايمان الاخيار

ومن هذا المقام يعلم أن مذهب المنكرين للمعاد من الكفار شر لا يماثله شر ؛ لانه يلزم عنه أنه لا حلال ولا حرام أصلا ، ومع هذا يتمتع العمران ، وقولهم : بأن نظام العالم يكمل بمعرفة الانسان ماله من الحقوق ، وما عليه من الواجبات الانسانية ، وهذه المعرفة تكمل له بالعلم الصحيح التام العام ، نقول في جوابه : انهم قد غفلوا عن أن الاهواء والشهوات ، وحب اللذات : لا يقاومها مجرد القوانين التي يقيمها العلم السياسى ، فلا بد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ، ومرجع يرجع اتباع طريق الخير ، وهجران سبيل الشر ، وهو الايمان بالمعاد ، والمكافأة على الاعمال ان خيرا خيرا وان شرا فشر ، والافليتأمل العاقل في الانسان اذا كان يعتقد أنه مثل نبات الارض ينبت ثم يزول لا إلى رجعة ، وليس له حظ من وجوده الا لذاته الحيوانية التي ينالها مدة حياته ، فهما سن له العلم السياسى من الضوابط لمعرفة ماله وما عليه ، فاذا قدر على قتل سواه وأخذ ماله الذى يبلغ الملايين بدون أن يطلع عليه أحد من الناس ، أو هتك أشرف عرض وبلوغ لذة بدون اطلاع

أحد ، فهل يظن أن تلك القوانين التي سنّها له العلم السياسي تردعه عن ارتكاب ذلك ، لا يقول بذلك الا مكابر ؟ ومن المعلوم أن الانسان مفطور على حب ذاته ، فمن يدري به حق الدراية لا يأمن له في شيء الا اذا وجدته مرتبطا بالدين ، وانا نرى أن بعض الامم تعتقد المعاد ويظهر فيها من بعض أفرادها ما يظهر من الفساد ، فكيف يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها ؟ فبلا شك أن فسادها يصير عظيما جدا ، على أننا نرى الامم التي انتشر بينها العلم الدنيوي ، لا سيما السياسي في هذا الزمان لا تزال آخذة في سبيل الشرور ، بل كلما ازداد ذلك العلم بينها ازدادت شرورها ، وفشا بينها الزنا الذي يضيع الانساب ، ويحل عقد التناصر ، وقتل النفس ، والاتحار ، وازالة العقل بالمسكرات ، والاحتيال : بفنونها وصنائعها على سلب الاموال ، والغش ، والخديعة ، وكثير من الاخلاق المحلّة بنظام الهيئة الاجتماعية ، وما ذلك الا لأن علومها التي برعت فيها ليس لها في اعتقاد المعاد نصيب ، وبالظن أن تلك الامم لولا بقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قد هوت للدمار ، وأخذت تنمحي من لوح الوجود

ومما يضحك الشكلى أن القوم الذين ينكرون البعث والمعاد لما لاحظوا أن العام لا يتكفل بنظام الهيئة الاجتماعية الا اذا كان تاما عاما في جميع الافراد الانسانية اشترطوا في تكفله بذلك أن يكون تاما عاما ثم قالوا : لا بد من ذلك يوما ما الا أن ذلك بعيد جدا ، وربما يلزم له

ألوف من الاجيال ، فهم في رفضهم لاعتقاد المعاد . وتمنيهم في العلم
هذه الاماني الواهية مثل الطبيب الاحمق الذي يقول للمريض بالمرض
القتال : اترك الحمية ، وكل ما شئت ، واني بعد كذا وكذا من السنين
آتيك بدواء يكون به شفاؤك ، فالى أن ياتي به ذلك الدواء يكون
المريض قد هلك ، وأصبح عظاما نخرة ، على أنه ليس من حسن
التدبير ، وكياسة الرأي ، والاخذ بالحزم مع عدم اعتقاد أولئك المنكرين
للمعاد أن يجاهروا به بين العموم ، حتى يروا أن العلم الذي يزعمونه
بمجرده متكفلا بحفظ نظام العالم قد تم وعم ، والافهم بمجاهرتهم بهذا
القول الباطل قد فتحو باب الدمار على العالم ، ونعوذ بالله تعالى أن
يشيع هذا الفكر بين الامم ، ومعاذ الله تعالى أن يشيع والعقول تأباه ،
هدانا الله واياهم لما فيه خير الانام

والنصيحة لهؤلاء المنكرين أن يأخذوا بالحزم والاحتياط ،
ويتصوروا أنهم اذا صدقوا بالمعاد ، وتأهبوا له فاذا كان حقا نجوا ،
وان كان باطلا لم يضرهم هذا الاعتقاد ، غاية ما في الباب أن يقال : انه
تفوتهم الالذات الجسمانية ، لكن هذه الالذات يجب على العاقل أن
لا يبالى بها ، لامرئ أحدهما : أنها في غاية الخساسة ، لأنها مشتركة
فيها الخنفساء ، والديدان ، والثاني ، أنها منقطعة سريعة الفناء والزوال
فالحرص عليها لا يساوى ترك الحزم والاحتياط في الامر الذي تخشى
عواقبه ، والله الموفق

الباب الثالث

في رد شبه عن نصوص شرعية تعتمد في الاعتقاد ، أو
التوفيق بينها وبين ما ثبت بالدليل العقلي القاطع : مما ينافي
المعاني الظاهرة لتلك النصوص ، وفيه أربعة فصول

اعلم أننا في هذا المقام نحتاج الى ثلاث مقدمات

«المقدمة الاولى» ليعلم أن النصوص الشرعية التي يعتمد عليها
في الاعتقاد ، كما يعتمد عليها في أحكام العبادات ، وأحكام المعاملات : هي
الآيات انقرآنية ، وبعض أحاديث نبوية : ثبت نقلها لنا عن الرسول
عليه الصلاة والسلام ثبوتا قطعيا تسمى بالمتواتر ، أو بعض أحاديث
ثبت نقلها عنه عليه السلام ثبوتا قريبا من القطعي يوجب طمأنينة
القلب ، والطمأنينة هي فوق الظن ودون اليقين ، وتسمى هذه الأحاديث
بالمشهورة ، ثم ان كل نص من هذه النصوص يجب علينا أن نعلم
فيه معناه الظاهر المتبادر منه ، ولا يسوغ لنا تأويله وحرفه الى معنى
آخر غير متبادر الا اذا قام دليل عقلي قطعي يناقض معناه الظاهر ،
فحينئذ يكون قيام ذلك الدليل العقلي قرينة دالة لنا على أن معناه الظاهر
غير مراد للشارع بل مراده معنى آخر غير ما يتبادر منه ، فنؤول النص
حينئذ ، ونصرفه الى معنى آخر غير الظاهر المتبادر على سبيل الاحتمال ،

يكون قابلاً له ، وغير مناقض لذلك الدليل العقلي القطعي : هذه هي القاعدة الكلية ، في النصوص الشرعية التي اعتمدها أهل السنة والجماعة ، وإنما لم يجز إرادة غير المعنى الظاهر من النص إلا لداع يدعو إليه لأن الأصل في التخاطب إرادة المعنى الظاهر المتبادر دون خلافه ، إذ إرادة غير الظاهر من غير داع ولا قرينة يكون خلافاً في الإفادة والاستفادة ، وفي ذلك من المفاسد ما لا يخفى ، وإنما انحصر الداعي إلى ترك الظاهر بمعارضة الدليل العقلي القاطع ، لأن رفض هذا الدليل رفض للأصل الذي ثبت به صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو العقل ، إذ لولاه لما أمكننا الاستدلال على صدقه عليه السلام بدلائل المعجزات ورفض العقل يوجب رفض الشرع ، وأما معارضة الدليل العقلي الظني فلا تكون داعياً لترك الظاهر من معني النص ، لأن رفض الدليل الظني لا يوجب رفض العقل كما هو واضح لاحتمال أن هذا الظن باطل في نفس الأمر ، فلو تركنا الظاهر من النص لأجل الدليل الظني لكننا في معرض أن يكون اعتقادنا خطأ لاعتمادنا على الظن ، وحيث لا نعذر في ذلك إذ لا ضرورة تدعونا إليه كما تدعونا للضرورة عند معارضة الدليل العقلي القطعي ، على أن اتباع الدليل الظني وترك ظواهر النصوص يوجب اختباطاً واختلاطاً في الالفة ولا يمد ، فإن الظنون كثيرة ، والاعتقاد في السرائع إنما يعتمد فيه اليقين ، فكان الصواب أن يتمسك بظواهر النصوص اليقينية البرود . ولا يتحول

عنها لمجرد الظنون، ثم قد يوجد في الأحاديث النبوية نصوص لا تتوفر في نقلها عن الرسول عليه السلام الشروط التي تبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور، فلا يكون ثبوت ورودها يقينياً بل ظنياً، وتسمى بالأحاد، ويعتمد عليها في أحكام العبادات، والمعاملات، ولا يجب أن يعتمد عليها استقلالاً في الاعتقاد حيث إنها ظنية، والاعتقاد لا يعتمد على الظن ولكن إذا نقلها العدول، وصارت معتمدة الفقهاء في الأحكام: لا يجوز إنكارها حيث لم يعارضها معارض عقلي، لئلا يجر ذلك إلى إنكار المتواتر والمشهور الموجب إنكارها الكفر، أو التضليل والعياذ بالله تعالى: نعم إذا اكتنف الأحاد ما يقويها ويجعلها يقينية الثبوت: فيعتمد عليها حينئذ في الاعتقاد، كما قيل في حديث عذاب القبر، والله سبحانه وتعالى أعلم

المقدمة الثانية: اعلم أنه لا يجب علينا شرعاً من الاعتقادات إلا ما قام عليه الدليل العقلي القاطع الذي لا يحتمل النقيض أو ما قام عليه الدليل الشرعي بأن نقل لنا عن الرسول عليه الصلاة والسلام آية قرآنية أو حديث متواتر أو حديث مشهور يدل على ذلك ولا يجب علينا تقليد غير رسول الله المعصوم عليه الصلاة والسلام فيما ثبت عنه قطعياً وأما إذ تمت لنا مسألة اعتقادية عن أكبر علماء الأمة الإسلامية من غير شك، فإنها العقلي القاطع أو دليلها الشرعي النابت قطعياً عن الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يجب علينا تقليده في تلك المسألة

لا سيما اذا كانت مناقضة لظاهر من ظواهر نصوص الشريعة التي تعتمد في الاعتقاد: نعم اذا اول بعض العلماء الذي يعتمد عليهم في فهم النصوص الشرعية بعض تلك النصوص بتأويل مناسب موافق للقواعد الشرعية والأصول العربية فالأخذ بتأويله سائق غير مضر في عقيدتنا اذا ظهر لتأويله داع قوى مثل الدليل العقلي القاطع الذي يحمل على التأويل وصرف النص عن ظاهر معناه فانه حينئذ يكون الأخذ بتأويله هو الصواب ولا يقال إننا قلدنا ذلك العالم في الاعتقاد وانما يكون اعتقادنا معتمدا على النص وقلدناه بفهم النص وتأويله لانه هو أعلم منا بذلك، فمن هنا يظهر لك خطأ بعض أهل هذا العصر في تقليد فلان الفلكي أو فلان الجغرافي أو فلان الجيولوجي المشهورين في فنونهم في بعض مسائل ربما تكون مخالفة لظواهر نصوص الشريعة التي تعتمد في الاعتقاد، فهذا الحال ربما يوقع هؤلاء المقلدين في الخروج عن الدين — والعياذ بالله تعالى وهم لا يشعرون، والذي يوقع أولئك المقلدين في تقليد فلاسفة هذا الزمان في تلك المسائل هو أنهم نظروا لهم أدلة في بعض مسائل فنونهم يقينية قطعية كأدلتهم في المسائل الحسابية والهندسية وبعض التجريبات الطبيعية المحسوسة فاغتروا بهم، وأوقعهم الوهم في اعتقاد أن كل ما يقوله أولئك الفلاسفة صواب يقيني الثبوت وأنهم لا يعتمدون في أدلتهم في جميع فنونهم إلا على اليقين ولم يدرك أنه يوجد فرق بين أدلة المسائل الحسابية وما ذكر معها وبين أدلة كثير

من المسائل الفلكية مثلاً بأن تلك يقينية وهذه قديوجد بينها كثير من الظنون والتخمينات وقياس الغائب على الشاهد الذي قد يكون في نفس الأمر قياساً فاسداً ، وإن قيل إن بعض تلك المسائل التي يقلد بها المقلدون فلاسفة هذا الزمان تكون مجعاعليها عندهم ، قلنا إنا معشر المسلمين لسنا مأمورين في شريعتنا بتقليد اجماع إلا اجماع هذه الأمة المحمدية ، أي اجماع علمائها الذين هم أهل الاجتهاد وفهم نصوص الشريعة حيث شهد لهم الرسول عليه السلام بأنهم لا يجتمعون على ضلالة على أن اجماع هؤلاء الفلاسفة على بعض تلك المسائل قد يكون مبنيًا على دليل ظني فلا يفيد عصمة اجماعهم من الخطأ لا سيما في المسائل التي تكون بعيدة الموضوعات عنهم كما في المسائل الفلكية والجوية ؛ فإن معظم أدلتهم فيها الحدث والتخمين وقياس الغائب على الشاهد كما يعلم من الاطلاع على كتبهم التي تقرر فيها تلك المسائل ، ولنا عبرة فيما حدث على مذهب المتقدمين من الفلاسكيين في وجود الأفلاك وما لها من الأحكام ؛ فإنه قد مرت عليه المئات من السنين وهم مجمعون عليه ، وكم ألفوا فيه من الكتب ، وكم دونوا من الأصول والقواعد ، وكم صوروا صور الأفلاك وذكروا لها من الأحكام الطويلة العريضة فجاء المتأخرون وأبطلوه من أصله وصار بينهم يعد خرافة من خرافات البشر ، إذا تقرر هذا فاعلم أنه كان من حق أولئك المقلدين

لفلاسفة هذا الزمان في بعض المسائل المخالفة لظواهر نصوص الشريعة الإسلامية أن يبحثوا عن أدلتهم فيها ويطلعوا عليها، فإن كانت ظنية فلا يلقون لها بالا، ولا يتركون اعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم القطعية الثبوت عن رسولهم الصادق المعصوم، وإن كانت أدلة يقينية ولم يبق معها ريب في دلالتها على ما يناقض ظهور نصوص الشريعة فحينئذ يسوغ لهم تأويل تلك الظواهر والتوفيق بينها وبين تلك المسائل كما هو القاعدة التي مر تقريرها عند أهل السنة والجماعة، وإن لم يكن أولئك المقلدون أهلا للتأويل فلا يرجعوا فيه إلا لعلماء الدين الأعلام فيفهمونهم التأويل اللازم الجارى على قواعد الشريعة وأصول اللغة العربية التي جاءت بها النصوص الشرعية ويؤمنون على إيمانهم الذي به سعادة الدارين والله الموفق

«المقدمة الثالثة»: إن الشريعة المحمدية، بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال، وإلى كيفية عبادته وأداء شكره، وإلى الأحكام التي توصلهم إلا انتظام المعاش وحسن المعاد، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هي النواميس القائمة في السماويات أو في الأرضيات وأمثال ذلك فليس شيء من نحو هذا من مقاصد الشرائع بل هذه المباحث هي معارف تتوصل الناس إليها بعتوهم وربما يتفنون بها في دنياهم وربما يكون حظهم فيها مجرد الاطلاع، والشرائع

لا تلتفت إليها أولا وبالذات ولا تعنى بتفاصيلها : نعم قد تذكر شيء منها مجالا على قدر ما يكون له دخل في مقاصدها الأصلية ، فتذكر مثلا خلق السموات والارضين وابرازها من العدم واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الالكوان ، واعطاء كل منها نظامه على سبيل الالجمال ، لاجل أن يكون ذلك دليلا عقليا للناس على وجود إله العالم وعلى اتصافه بالعلم ، والقدرة ، والحكمة إلى غير ذلك ، وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو إلى ذلك يكون مرجعه إلى مقاصدها ، اذا تقرر هذا فنقول : —

الفصل الأول

في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة في السماويات والأرضيات ، أو التوفيق بينها وبين ما قام عليه الدليل العقلي القاطع مناقضا لظواهرها

اعلم أنه قد ورد في نصوص الشريعة الإسلامية — التي تعتمد في الاعتقاد : أن الله تعالى خلق سبع سموات ، وخلق جسما كبيرا فوق تلك السموات يسمى كرسيًا ، وجسما آخر فوقه يسمى العرش ، وأن بيننا وبين تلك الأجسام مسافات عظيمة — كما أن بينها مسافات ، وأنه تعالى خلق جسما كبيرا يسمى لوحا ، وجسما آخر يسمى قلما ،

لإثبات ما يكون في العالم وتسديره ، لا عن حاجة إلى جميع ذلك ، بل لحكم هو يعلمها سبحانه ، وأنه خلق درا تسمى الجنة أعدها لنعيم الطائعين ودرا أخرى تسمى جهنم أعدها لعذاب غير الطائعين ، بعد خراب عالم الأرض والسماوات ، وبعث الناس بعد الموت كما تقدم ، وأنه خلق الكواكب وجعلها زينة السماء الدنيا ، أى السماء القربى من الأرض فقال بعض علماء الاسلام: هى مركوزة فى نفس السماء ، وهو قول جمهور المفسرين ، وقال بعضهم: هى دون السماء بينها وبين الأرض ، وهو منقول عن مكى ، وعن وهب ، ونقله فى مختصر الهيئة السنية لأقرماني عن كثير من المفسرين وغيرهم ، ونقل الشيخ مرعى الحنبلى فى « عجائب المخلوقات » حديثا آحاديا يدل عليه ، وكذلك نقل هذا الحديث أبو جعفر محمد بن عبد الله الكسائى فى كتاب « الملكوت » ونقل الرازى أثرا عن كعب فى تفسير سورة « القدر » صريحا فى أن الشمس دون السماء ، وعلى هذا القول فيكون معنى كونها زينة السماء الدنيا أنها زينة لها بحسب رأى الناظرين إليها — وإن كانت تحتها وهذا لا يلزم منه أن تكون مركوزة فى نفس السماء ، ولعل أصحاب هذا القول يتأولون قوله تعالى : « وجعل القمر فيهن نورا » أى فى السماوات نظير هذا التأويل ، وورد أيضا من نصوص الشريعة ما يفيد أن كلا من الكواكب يسبح فى فلك ، فقال بعض علماء الاسلام : ان تلك هو جسم يحمل الكواكب ، وقال بعضهم : هو مداره ، أى الحيز

الذى تسير فيه من الفراغ ، وهذا قول الضحاك — كما فى الرازى ،
والذى عليه جمهور علماء الاسلام ، أن السماء مرئية لنا — كما يستفاد من
ظاهر بعض النصوص ، وقال بعضهم ، إنها غير مرئية ، وأما المرفى
الهواء ، نقله فى «عجائب المخلوق» عن القاضى أبى بكر بن العربى ، ولا بد
أنه يؤول النص الذى يدل ظاهره على أنها ترى بتأويل مناسب ، وورد
أيضا فى النصوص الشرعية أن الله تعالى خلق سبع أرضين ، فقال
بعض العلماء : ان المراد بها أقاليم أرضنا السبعة ، وقال بعضهم : إن
المراد طبقات الأرض المتراكمة على بعضها ، وروى فى بعض الآثار
عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن كل أرض منها كأرضنا وفيها عالم
كالمنا ، وورد من النصوص ما ظاهره أن الأرض بسيطة كما فى قوله
تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » وهو مذهب جمهور علماء
الاسلام ، وقال بعضهم : أنها كروية ، وممن قال بذلك الامام الرازى
وتأولوا قوله تعالى : « دحاها » بأنه جعلها صالحة لسكنى الحيوانات بعد
أن لم تكن كذلك ، وظاهر بعض النصوص يفيد أن الشمس هى التى
تسير كما قال تعالى : « والشمس تجري لمستقرها » وقوله تعالى : « وجدها
تطلع » و « وجدها تغرب » وكما يفهم من استعمال أهل الشرع
فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده من قولهم : طلعت الشمس ،
وغربت الشمس ، وظاهر ذلك أن الأرض ساكنة وان لم يرد تصريح
بحركتها ولا بسكونها ، فيجب علينا معشر المسلمين الايمان بما تعطيه

ظواهر هذه النصوص ، والأخذ بقول جمهور العلماء فيما فهموه منها ، وتأويل بعض العلماء المخالف للجمهور وإن كان الأخذ به لا يضر في الدين بفساد الإيمان ؛ لأنه جار على تأويل مناسب ولكن حيث لم يظهر لنا داع قوى يدعو لذلك التأويل فالأخذ بقول الجمهور واعتمادنا على ما فهموه من النصوص يكون هو الموافق لقواعد الدين الإسلامى

فإن قيل : إن المتأخرين من الفلاسفة الفلكيين يدعون أنهم بأرصادهم وبوسائل الآلات التى اخترعوها للنظر فى أحوال السماويات قد ثبت عندهم أنه لا يوجد فى الكون إلا الكواكب ، وإن أرضنا التى نحن عليها هى كرة ومدودة من جملة الكواكب ، وأن الشمس واقعة فى الوسط تدور فقط على محورها دورة بطيئة ، والأرض وجميع الكواكب تدور حولها بواسطة ناموس يسمى ناموس الجاذبية ، وأن لأرضنا كما لغيرها من الكواكب دورتين دورة سنوية حول الشمس منها تتولد الفصول الأربعة ، ودورة يومية على محورها ، ومنها تتولد أوقات الليل والنهار بواسطة مقابلة نور الشمس تارة والاستتار عنه أخرى ، وأن الذى نراه من الزرقة إنما هو لون الجو وليس هو سماء إذ لا وجود للسموات عندهم ، ولا يقولون بوجود أرضين غير هذه الأرض ، وشاعت أقوالهم هذه وأخذ بها الكثير من عامة الإسلام من غير التفات إلى التوفيق بينها وبين النصوص الشرعية التى تقدمت

فكيف يكون التوفيق وما الحكم في ذلك ؟ قلنا : قد تقدم لك أنه يجب علينا اعتقاد ظواهر النصوص الشرعية ، واعتماد ما عليه الجمهور في فهم معانيها ، ولا يجوز لنا تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها إلا لدواع قوى ، وهو قيام الدليل العقلي القاطع المناقض لظواهر النصوص ، ولا يجوز لنا تقليد علماء الاسلام في أمر الاعتقاد من غير أن يظهروا لنا دليلا عقليا أو شرعيا فكيف بمن سواهم ، وعلى هذا فمن بلغه منا معشر المسلمين أقوال أولئك الفلاسكين المتأخرين من غير دليل عقلي قاطع يثبت كل مسألة من المسائل التي يدعونها فيما تقدم ، أو بدليل ظني لا ينتج اليقين فعليه ألا يلتفت لكلامهم ، ولا يتحول عن اعتقاد ما تعطيه ظواهر النصوص الشرعية التي تقدم نقلها ، ولا يهمل اعتمادها على ما فهمه جمهور علماء الاسلام منها ، هذا هو الواجب عليه ، والحافظ لايمانه من الاختلال : وأما اذا بلغ أحدا منا كلامهم المتقدم مع اقامتهم له الدليل العقلي القاطع الدال على كل مسألة من المسائل المذكورة من مسائلهم ، ويكون ذلك مناقضا لظواهر النصوص التي تقدمت بخصوص تلك المسائل فعليه أن يرجع حينئذ إلى القاعدة الكلية التي تقدم لنا تقريرها ، وهي تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظواهرها الى احتمال معان تناسب ما قامت عليه أدلة أولئك القوم العقلية القطعية اليقينية ، ولا ضرر عليه في ذلك بعد أن يتحقق صحة أدلهم وافادتها اليقين الذي لا شبهة فيه ، اذا تقرر هذا فنقول

في رد شبه هذا المقام ، والتوفيق بين نصوصه وبين ما يفرض تحققه من الأدلة اليقينية المناقضة لتلك النصوص

أما قول أولئك الفلاسكيين ان الكواكب قائمة في الفضاء بناموس الجاذبية وليست مركوزة بسماء فهو أمر جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ويكون ذلك الناموس من جملة الأسباب العادية التي وضعها الله تعالى في الازمان ، فاذا قام لنا الدليل العقلي المقاطع على قيام تلك الكواكب في الفضاء كما يقولون : نتأول النص الذي ظاهره أن الكواكب مركوزة في السماء وهو قوله تعالى : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » بأنه من المحتمل أن يكون مراده تعالى بكونها زينة أنها زيتتها بحسب رأى الرائي وان كانت تحتها — كما قال بذلك جملة من علماء الاسلام ، وتقدم نقله عن مكى ، ووهب ؛ وكثير من المفسرين ، وكعب ، وناخذ بقول من قال من علمائنا : ان المراد بأفلاك الكواكب هو مداراتها من الفضاء الذي تدور فيها لا أنها أجسام تحملها ، ولنكون قد جرينا على قاعدة التأويل عند قيام الدليل القطعى المعارض مع الموافقة لجملة من العلماء على أسهل وجه

وأما قول أولئك الفلاسكيين ان المرئى لنا من الزرقة هو لون الجو ، فغاية ما عندهم من الدليل أن نظاراتهم المجسمة لم تكشف لهم جسما غير الكواكب قائمة في الفضاء ، ولذلك أنكروا وجود السماء ، ونقول : ما المانع أن السماء لشدة بعدها عن الأرض بمسافات شاسعة

ماعدات النظارات صالحة لأن تحقق جسميتها لهم ، ويمكن أن يكون
لونها هو الذى يخفى حقيقة جسميتها ، وهذا هو الذى أوهمهم عدم
وجود جسم فى الفضاء غير الكواكب ، على أن بعض علماء الاسلام
وهو القاضى أبو بكر بن العربى قد قال : بأن السماء غير مرئية ، وتأول
النص الذى ظاهره أنها ترى — كما تقدم ، ولا يلزم من عدم رؤيتها
عدم وجودها كما هو القاعدة المسلمة ، من أنه لا يلزم من عدم الوجدان
عدم الوجود ، والله تعالى أعلم

وأما قول هؤلاء الفلكيين : ان الأرض كرة فبعد اقامتهم لنا
الدليل العقلى القاطع الدال على كرويتها لا مانع لنا من القول به ،
ويمكن تأويل النص الذى ظاهره أنها مبسوطة كقوله تعالى : «والارض
بعد ذلك دحاها» بأن جعل سطحها صالحا للسكنى بسد أن لم يكن
كذلك مع أنها فى نفسها كرة كما قال به الامام الرازى وغيره ، ولا
بد أنه قام الدليل القاطع لدى من قال من علماء الاسلام بكرويتها ،
والله تعالى أعلم

وأما قولهم : ان الشمس لا تسير حول الأرض ، وانما لها دورة
بطيئة على محورها والارض هى التى تدور دورتين ، احداها
سنوية حول الشمس تتولد منها الفصول الأربعة ، والأخرى
يومية على محورها تتولد منها أوقات الليل والنهار ، فنقول : هذا من
الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فاذا أقاموا

لنا الدليل العقلي القاطع على ذلك فلا مانع من القول به ، ونتأول
ما ظاهره من النصوص الشرعية أن الشمس تسير وهو قوله تعالى :
« والشمس تجري لمستقر لها » بأن المراد من جريها هو دورانها على
محورها ، وانها تجرى إلى استقرار يكون لها بعد ذلك عند ما يخرب
عالم السموات والأرض بمجيئ يوم القيامة ، فانها حينئذ تقف عن تلك
الدورة ، وأن سبحها في فلكها عبارة عن دورانها على محورها في الحيز
الذى هو فلكها — كما تقدم أن الفلك هو الحيز في تفسير بعض
علمائنا ، وأما الأرض فانه وان لم يرد تصريح في النصوص الشرعية
بحركتها أو بسكونها ولكن نسبة الجرى والسبح في الفلك الى الشمس ،
وظواهر استعمالات الشرع ، وأهل العصور الاسلامية يتدل بالظاهر
على أنها ساكنة ، والحركة اليومية التى نراها إنما هى للشمس
والكواكب لا للأرض ، فاذا أقام لنا هؤلاء الفلكيون الدليل العقلي
القاطع على أن تلك الحركة اليومية للأرض تدور على محورها يمكننا
أن نصرف النص الذى ظاهره سير الشمس على ظاهره — كما تقدم
كما يمكننا أن نقول : ان استعمالات الشرع فيما يدل ظاهره على أن
الدورة اليومية للشمس لا للأرض ، وجرى على ذلك استعمالات
العصور الاسلامية ، إنما كان ذلك جريا على الظاهر المشاهد للعامة ،
ومجازاة لاستعمال الأمم وما أقوه في نظرهم ، وتكون هذه المسألة
من جملة المسائل التى لم يؤذن لارسال بشرحها للعموم ، لأن كشف

حقيقتها ليس من مقاصد الشرائع لما تقدم أن مقاصد الشرائع إنما هو بيان التوحيد ، والعبادات ، ونظام المعاش ، وأيضا بيان تلك المسئلة ربما قد يعجز عن فهمه كثير من العامة ، بل ربما يكون فيه للعامة اضطراب واختلال لاسيما الضعفاء منهم الذين يجدون ذلك مخالفا لمشاهدتهم ، ولسنا نقول : ان فهم هذه المسئلة يصعب على أجلاء الصحابة رضى الله تعالى عنهم الذين حازوا من المعارف النبوية ما يؤهلهم لفهم أعظم المسائل وأدقها ، بل نقول : ان فهمها يصعب على العامة لاسيما أهل البوادي ، ولينظر لو قيل للعرب الجاهلية : ان الأرض هي التي تدور والماء على ظهرها ولا يسقطون عنها ولا ينفصل عنها ماء البحر ونحو ذلك ، وهم يشاهدون بأبصارهم أن الدائر حول الأرض إنما هو الشمس والكواكب ماذا يكون حالهم حينئذ وما كان يظهر فيهم من المخالفة والامتناع عن التصديق لهذا القول ؟ وانظر الى ما استبعدوه وأنكروه من أمر البعث وأمثال ذلك ، ولكن الشرائع في غنية عن بيان مثل مسألة الأرض ، إذ ليست من مقاصدها ، وأما بيان البعث فهو من مقاصدها لما فيه من الترهيب والترغيب المصالحين للأمم فلذلك لم تترك بيانه وان صعب فهمه على كثير ، بل ذكرته وأقامت الدلائل عليه ، والملخص أن الشرع جرى في استعماله على ظاهر الحال . ويسمى ذلك في اصطلاح اللغة تجوزا ، ولم يظهر الحقيقة للشعب لما قدمنا ، وهكذا نرى الآن من يعتقدون دورة

الأرض يجرون في استعمالهم على ماهو ظاهر الحال ويقولون :
طلعت الشمس وغربت ، ولم نسمع أحدا منهم يقول : قابلنا الشمس
أو استترنا عنها ، وكل هذا جائز في الاستعمالات اللغوية ، لقيام الصورة
الظاهرية بالمشاهدة

وليعلم أن جميع ماقررناه هنا — وان كان سائغا لنا ولا ضير فيه ،
إلا أننا لا نقول به الا بعد إقامة الدليل العقلي القاطع على صحة قول
هؤلاء الفلكيين ، والا فنحن متمسكون بالظواهر ، لانفارقها ولا
نلتفت إلى أقوالهم وإجماعهم ، إذ ليسوا معصومين من الغلط كما لم
يمصم أسلافهم ، والله تعالى أعلم

وأما إنكار هؤلاء الفلكيين لوجود السموات السبع ، والعرش ،
والكرسى ، والقلم ، واللوح ، والجنة : والنار : فهذا ليس لديهم دليل عليه ،
إلا أنهم ما وجدوا هذه الأشياء ولا رأوها بنظراتهم المجسمة ،
ونقول : ان عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود في نفس الأمر ،
وهذا مسلم عند جميع العقلاء فانكارهم لا يعبا به ، ثم اننا نحن وإياهم
متفقون على وجود الفضاء الذي لا يتناهى فما المانع من أن الله تعالى
خلق تلك الأجسام وراء عالم الكواكب بعد تسليم أن الكواكب
قائمة في الفضاء ، وتلك الأجسام تكون بعيدة عنا بمسافات شاسعة
لا تدركها نظاراتهم ، أو أنها وإن ادركت بها السماء الدنيا التي هي أول
تلك الأجسام فربما تكون تلك السماء ملونة بلون يوجب عدم تحقق

جسميتها بالنظارات ، فهم لم يروا بنظاراتهم ولم يتحققوا إلا جسمية الكواكب ، فانكروا تلك الأجسام وهي موجودة في الفضاء الواسع الشاسع ، وحيث إن ذلك جائز محتمل داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى بأن يخلق سبحانه تلك الأجسام ويقيمها في ذلك الفضاء — كما أقام الكواكب ، وقد أخبر بوجودها الصادق عليه السلام ، فنحن نؤمن بوجودها وليس لنا تأويل نصوصها الواردة فيها ، إذ لا داعي لذلك لعدم قيام دليل قاطع يناقض وجودها ، ومجرد انكار أولئك القوم ليس دليلا ظنيا فضلا عن أن يكون دليلا يقينيا ، والله تعالى أعلم وأما انكارهم كون الأرضين سبعة فهذا أيضا لا دليل لهم عليه ، فغاية ما عندهم أن يقولوا إننا لم ننظر غير الكواكب وهذه الأرض ، ونحن نقول : أولا أنه لم يتفق جميع علماء الإسلام الذين يعتمد على فهمهم للنصوص الشرعية على حمل النص الذي يدل على وجود سبع أرضين على ظاهره : من وجود سبع أرضين منفصلة مستقلة كل واحدة منها ، بل بعضهم قال : المراد بها أناليم أرضنا السبعة ، وبعضهم قال : المراد بها طبقات أرضنا ، وثانيا إذا جرينا على ما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن كل واحدة منها منفصلة مستقلة مثل أرضنا ، وإن في كل منها عالما كعالمنا فهذا شيء من المجازات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى الذي أوجد هذه الكواكب العظيمة التي يوجد بينها ما يزيد في العظم عن أرضنا بمئات الألوف ، فما المانع أن يكون الله تعالى قد

خلق ست أرضين غير أرضنا ، وتكون تلك الأرضون قائمة في الفضاء كما يقول أولئك الفلكيون في أرضنا وعدم رؤيتهم لها بنظاراتهم يمكن أن يكون بسبب أنها مظلمة السطح لا ترى كما أن القمر لا يرى عند المحاق ، ويمكن أنهم يرونها بين الكواكب ويحسبونها من جملتها ، ولا غرابة في ذلك على أصولهم فكثير منهم من يزعم أن في الكواكب سكانا ، ويستدلون على ذلك بأدلة ظنية تعلم من الاطلاع على كتبهم فحيث قد تبين أن وجود سبع أرضين لا مانع منه ، وقد أخبر به الصادق ، فنؤمن بوجودها ولا نلتفت إلى كلام هؤلاء الفلكيين الذين لا سند لهم في انكارها ، ويسوغ لنا تفسيرها بكل من التفاسير المتقدمة حتى على قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مع توجيهه بما قدمناه ، والله تعالى أعلم

وقد بقى نص في القرآن الشريف ترد على ظاهره الشبهة على رأى الفلكيين المتقدمين والمتأخرين ، وهو قوله تعالى في قصة ذى القرنين « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة » فان ظاهره أن الشمس تغرب في عين من عيون الأرض ، وكان يجب علينا الايمان بمعناه الظاهر ، لكن قد قام الدليل العقلى القاطع من لدن المتقدمين على أن الشمس أكبر من الأرض بكثير ودخول الجسم الكبير في الصغير مع البقاء على مقدارهما من المحال ، وقد قام الدليل القاطع أيضا على أن الشمس لا تغرب في نفس الأرض

وعلى هذا فقد صرف علماء الاسلام هذا النص عن ظاهره إلى غير ما يتبادر منه ، فقالوا : يحتمل — والله أعلم بمراده — أنه تعالى أراد أن ذا القرنين لما بلغ ذلك المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرأى تغرب في عين حمئة ، لأن الناظر إلى الشمس في سواحل البلاد الغربية يتخيل أن الشمس تغرب في بحرها الغربي المحيط بها ، وذلك البحر كثير الحمأة السوداء والظلمة ، وذو سخونة وليس مراده أنها تغرب في عين بالفعل ، ولذلك قال : « وجدها تغرب » ولم يقل فاذا هي تغرب مثلاً من العبارات التي تفيد حكاية واقع الأمر نصاً ، وهكذا يقول الرجل منا : أنى من المكان الفلانى وجدت الشمس تغرب في البحر ، أو خلف الجبل ، أو في الوادى والحال أن اعتقاده أنها لم تغرب في واحد منها وإنما حكى صورة رؤيته ، يؤخذ هذا التأويل من الرازى ، والجلالين ، والكواشى كما نقله في « عجائب المخلوقات » ، قال الرازى : وما قاله أهل الاخبار من أن الشمس حقيقة تغرب في العين كلام على خلاف اليقين ، وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل ، والله تعالى أعلم

الفصل الثاني

في رد الشبه عن النصوص الواردة
في شؤون الملائكة والجن

قد تقدم لنا في الباب الثاني وجوب الايمان بالملائكة ، والآن نقول : إنه قد وردت نصوص الشريعة متواترة أو مشهورة وأحاديث آحادية لكن لكثرتها ، وتعدد طرقها بلغ ما يستفاد منها درجة التواتر يدل جميع ذلك على أن الله تعالى خلق أجساما لطيفة نورانية تسمى ملائكة ، قادرة على الشكل بأي شكل أرادت ، وأنها تقطع المسافات التي بين السموات والأرض في مدة قصيرة جدا ، وأنها تمر أما منا ولا نراها ، وأنها تفعل افعالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر ، وأنها موكلة بمحادث هذا الكون : كنزول الأمطار ، وتدبير عالم الحيوان والنبات ، وغير ذلك ، وانه تعالى خلق أجساما أخرى تسمى جنا تشابه الملائكة المذكورين في بعض خواصها : من نحو الاقتدار على التشكل ، والاحتجاب عن الابصار ، والاقتدار على أعمال عظيمة ، ولكنها تخالفهم بأنها ليست نورانية مثلهم ، وأنها مكلفة كالbشر ، فمنهم المؤمن الطائع ، والمعاصي ، والكافر ، وقد وردت شبه على وجود الملائكة والجن وشؤونهم : من نحو الاقتدار على التشكل ، والأعمال الشاقة ، مع أنهم أجسام لطيفة وغير ذلك من بعض الفلاسفة المتقدمين وتبعهم المتأخرون ، ونقول في بيان رد تلك الشبهة ، وإظهار أنها أوهام

لا تقوم لدى الايمان بعظمة قدرة الله تعالى على إيجاد الملائكة والجن في تلك الشؤون والأحوال

اعلم أنه من الممكن الجائز عقلا أن الله تعالى عظيم القدرة ، واسع العلم ، قد خلق الملائكة من مادة لطيفة كمادة الهواء أو الأثير الذي يقول به المتأخرون من أنه مادة لطيفة جدا مائة الكون لا ترى ، وقد كونهم سبحانه من تلك المادة ، وجمع أجزاءهم بكيفية صالحة لتلك الخواص والشؤون التي ذكرناها لهم كما كون سبحانه الحيوان من العناصر الجمادية بكيفية أكسبته قبول الحياة ، وجميع قواها من الإدراك والحركة وغير ذلك بعد أن لم يكن للعناصر شيء من ذلك ، ويحتمل حينئذ أن عدم رؤيتنا إياهم لشفافتهم ولطافتهم كالهواء والأثير ، على أن الأمر ظاهر جدا على ما ثبت لدينا معشر المسلمين من أن الرؤية بمحض خلق الله تعالى فمن الممكن أن الله تعالى لا يخلق رؤيتنا لهم عند مرورهم أمامنا ، ثم إن اقتدارهم على التشكل مع أنه جائز عقلا دخل تحت تصرف قدرة الله تعالى يمكن توجيهه وبأن كبرياؤه المقدر به أن الله تعالى كون تلك الأجسام على كيفية يسررون بها على تناول كمية من الهواء أو الأثير أو نظير ذلك ونكتفيهما رتكوينها على الصورة التي يريدونها ثم يلبسونها كما يريدون في غيظهم وللأبصار بتلك الصور ، وفي الأعمال الكيماوية

التي أقدر الله تعالى البشر عليها من تحويلات الأجسام إلى بعضها
كتحويل الكثيف لطيفا ، واللطيف كشيئا ما يقرب فهم ما قررناه
إلى العقول ، وحيث ان تشكل تلك الأجسام كيفما كان هو مستند
إلى عظمة قدرة الله تعالى الذي تدهش أعماله الأفكار فيما أعطاه
للحيوان والنبات من الخواص ، فلا غرابة في ذلك ، وكل مؤمن
بذلك الإله ، وبمعظم قدرته ، وواسع علمه لا يستبعد حصول
ما ذكر للملائكة

وأما انهم يعملون أعمالا عظيمة تعجز عنها قوى البشر مع أنهم
أجسام لطيفة فبعد النظر إلى أعمال الرياح التي تقلع الأشجار
العظيمة ، وتهدم الأبنية الجسيمة ، وأعمال القوة الكهربائية التي تجر
الاثقال التي يعجز عنها ألوف الرجال لا تجد في نسبة تلك الأعمال
للملائكة مع أنهم أجسام لطيفة شيئا من الغرابة ، لا سيما وان الذي
يقدرهم على تلك الأعمال هو الله تعالى الذي لا يعد ذلك بالنسبة
إلى عظيم قدرته شيئا صعبا ، وإذا نظرنا إلى أن بعض الناس يكسر
بقوة ذراعه الحديد ، وما هي قوة ذراعه إلا عمل أعصابه مع عضلاته
التي تنتهي أخيرا إلى مخه اللطيف النحيف الذي هو مبدأ حركة
الأعضاء ، على مايقوله أولئك الفلاسفة ، والمخ لطافته لا يتحمل أذى
مصادمة من جسم غريب ، بل صعود نقطة دم زائدة على القدر
اللازم له قد تفسده وتعدم صاحبه الحياة ، ظهر لنا أن الله تعالى قادر

على اعطاء اللطيف قوة لا توجد في الصلب الكثيف : سبحانه من
قادر عليم

واما أن الملائكة يقطعون المسافات الشاسعة بين الاجسام السماوية
وبينها وبين الأرض بمدة قصيرة جدا فنقول : لا مانع منه عقلا
لأن سرعة الحركة ليست محصورة بمحد يسير فلي نظر إلى ما قاله
أولئك الفلاسفة : من أن الجسم الساقط إلى الأرض في أول ثانية من
سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدما ، وإذا كان سقوطه إلى الشمس
تكون سرعته في تلك الثانية أربعمئة وخمسين قدما ، ثم ان الجسم
يسقط في أى عدد كان من الثواني بعد الثانية الأولى ما يساوى
مقدار ما يسقط في الثانية الأولى مضروبا في مربع ذلك العدد من
الثواني ، فبالأمل في هذا الناموس يعلم ما تبلغه سرعة حركة
الأجسام من العظمة التي يختار فيها الفكر ، وكذلك عندهم في علم
الهيئة أن نجم المشتري يجرى ثلاثين ألف ميل في الساعة ، أى أسرع
من كاة مدفع ثمانين مرة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان ،
وسرعة أجزائه الاستوائية في دورانه على محوره أربعمئة وسبعة
وستون ميلا كل دقيقة ، ففي الساعة يقطع كل جزء من تلك الأجزاء
سبعة وعشرين ألفا وتسعمئة وعشرين مرة ، والمشتري أكبر من
أرضنا بالف وأربعمئة مرة على ما يقوله الفلكيون منهم ، فالذى جعل
هذا الجسم الكشيف العظيم وكل جزء من أجزائه الاستوائية تقطع

تلك المسافة الشاسعة في تلك المدة الجزئية لا يبعد على قدرته أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات بين السموات والارض في مدة قليلة جدا وان كانت هذه المسافات أكثر بكثير من المسافات التي يقطعها المشتري وأجزاءه ، لكن النظر الصحيح في سير ذلك الكوكب يقنع العقل بان قدرة الله الذي سيره ذاك السير صالحة لأعظم ما يكون من جنس هذا العمل لا سيما وناموس الأجسام الساقطة قد بين عظم سرعة حركة الاجسام ، وان قيل : ان سير المشتري هو بواسطة الجاذبية على ما هو مفصل في كتب أولئك القوم ، وكذلك سرعة الاجسام الساقطة ، قلنا . وما هي تلك الجاذبية التي ينسبون اليها أعمالا عظيمة في الكائنات ؟ وهم يعجزون عن الافصاح عن حقيقتها ، وعما هو الموجب لقيامها في الاجسام وغاية ما يكون منهم أنهم يقولون بها لتعليل الحوادث التي حيرت عقولهم : من نحو النظام الشمسي أى دوران الكواكب حول الشمس وغيره ، وبعد تسليم ثبوتها نقول من الذي أوجدها وجعلها خاصة الاجسام وأنشأ عنها تلك الحوادث العظيمة في الكائنات ؟ أغير الاله الذي أبدع الخلق من العدم ، ووضعها على أتم نظام ، وأسمى حكم ؟ فاذا كان ذلك الاله قادرا على إيجاد مثل هذه الجاذبية ، واحداث حركات الأجسام السريعة عنها فلا يعجز أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات في مدة وجيزة : اما بخاصة وضعها فيه ، وأما بغير خاصة فالكل جائز عقلا ، وقدرته صالحة

لكلا الأمرين، وليعلم أن جميع ماقررناه في حق الملائكة يقال مثله في شأن الجن : من القدرة على التشكل ، والأعمال العظيمة ، وقطعهم المسافات الطويلة في برهة قليلة ، وعدم رؤيتنا لهم ، والاستدلال واحد لا يخفى على الفطن الذكي ، والله تعالى أعلم ، نقول : ومن هذا المقام تبين لك اندفاع الشبهة التي ترد على الاسراء والمعراج اللذين حصلنا لسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والشبهة التي ترد على انتقال عرش بلقيس من بلاد اليمن إلى مجلس سلمان عليه السلام في لحظة طرف أما الاسراء والمعراج فقد ورد في القرآن الشريف أن الله تعالى أسرى بسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في ليلة واحدة من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس ، وورد في الأحاديث الصحيحة التي بلغت بكثرتها درجة القطع بثبوتها أن الله تعالى أبعده في تلك الليلة إلى السموات العلى ، ثم أعاده إلى مكة في نفس تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر ، فيجب علينا الإيمان بذلك حتى أن كثيرا من العلماء يذكرون الاسراء والمعراج في جملة العقائد التي يجب الإيمان بها ، وإنما أخرنا ذكرها إلى هنا لبيان دفع الشبهة عنهما في مناسبة هذا المقام ، فنقول : حيث قد ظهر هنا أن سرعة الحركة الاجسام مهما بلغت القدر العظيم فهي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى فما المانع ان الله تعالى ينقل ذات سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في ليلة واحدة من حرم مكة إلى حرم القدس ، ثم إلى السموات العلى ، ثم يعيده في تلك الليلة إلى مكة ، فمن يؤمن بوجود الله تعالى ، ويتبصر

في أعماله في هذه الا كوان ، ويعتقد أن سيدنا محمد رسول الله ، وقد أخبرنا بأنه قد حصل له ذلك الانتقال السريع في تلك المسافات ، وهو صادق معصوم عن الكذب : لا يتوقف بتصديق قصة الاسراء والمعراج ، ويؤمن بذلك من دون تردد ، ولا يجده الا من الامور الجائزة الداخلة تحت تصرف قدرة ذلك الاله العظيم ، وأما من لم يكن مؤمنا بوجود الاله سبحانه وعظيم قدرته ، ولم يعتقد برسالة رسول الله فهذا الصواب في حقه أولا أن يرشد الى الايمان بالله تعالى ورسوله بواضح البرهان ، وبعد ذلك يسهل عليه تصديق نصوص الأحاديث والقرآن ، والله الموفق

وأما قصة مجيء عرش بلقيس من بلاد اليمن الى مجلس سليمان في لحظة طرف فقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم ، وأنها جرت على يد من عنده علم من الكتاب ، فبعض المفسرين قال : انه آصف ابن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام ، فيكون مجيء ذلك العرش كرامة أظهرها الله تعالى على يده ، لأنه من أولياء الله تعالى ، وبعضهم قال : انه نفس سليمان عليه السلام فيكون ذلك معجزة أظهرها الله تعالى على يديه اذ هي أمر خارق للعادة ، ومن تأمل في هذا المقام وظهر لديه أن سرعة حركة الأجسام مهما بلغت فهي من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى : فلا يصعب عليه الايمان بهذه القصة ، والله على كل شيء قدير

الفصل الثالث

في رد الشبه عن بعض النصوص الشرعية
الواردة في الأمور الجوية كالمنطق ونحوه

اعلم أن الآيات الواردة في القرآن الشريف في شأن المنطق هي على قسمين ، منها ماظهره أن المنطق ينزل من السماء ، ومنها ماظهره أنه ينزل من السحاب ، ثم ان السماء تطلق في اللغة العربية التي جاءت هذه الشريعة الإسلامية بها على عدة معان كما في قواميس تلك اللغة ، منها السماء التي هي مسكن الملائكة ، ومنها سقف كل شيء وكل بيت ، ومنها كل ما علا الشيء فهو سماءه ، ومنها السحاب ، ومنها المنطق ، وبناء على ما تقدم من وجود اعتمادنا على المعنى الظاهر المتبادر من النص ما لم يقم دليل قاطع على خلافه علينا أن نعتقد المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور في إنزال المنطق ، وهو مسكن الملائكة كما هو المراد في كثير من الاستعمالات الشرعية ، ونوفق بين النصوص التي ظاهرها نزول المنطق من السماء والتي ظاهرها نزوله من السحاب بأن الله تعالى ينزله من السماء على البخارات المجمعة في الجو المسماة بالغياب ، ثم ينزله منها إلى الأرض ، فتارة تذكر النصوص محل نزوله الأول ، وتارة تذكر محل نزوله الثاني ، والله أصدق القائلين ،

ونقل عن قطب العارفين سيدنا السيد أحمد الرفاعي قدس سره العزيز في بيان هذا التوفيق أن المطر قسمان ، مطر ينزل من السماء وهو الذي يكون بسببه خروج النبات ، ومطر يتكون من بخارات الأرض وبحارها ويتصاعد إلى الجو ثم ينحدر من السحاب ، وهذا لا يكون به الانبات ، وإن كان له حكم و منافع الله أعلم بها ، ثم إذا ثبت بالدليل العقلي القاطع ما يقوله الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون : من أن المطر ليس إلا من بخارات الأرض وبحارها يتصاعد إلى الجو بسبب الحرارة ثم ينعقد بسبب البرد سحاباً ، ثم يتحلل مطراً ، وتحقيق ذلك بدون ريب ساغ لنا حيث ذكرنا على وجوب القاعدة المتقدمة أن نزول النصوص التي يتبادر منها أن المطر ينزل من السماء التي هي مسكن الملائكة بأن المراد بالسماء في هذه النصوص هي ما علانا وصار سقفاً لنا وهو السحاب كما هو أحد معانيها اللغوية ، وقد ذكر هذا التأويل الإمام الرازي في تفسير سورة البقرة ، وأشار إليه الشيخ الشرنبلالي في شرح « مراقى الفلاح » أو أن يقال إنه لما كان نزول المطر بأسباب سماوية من جماتها حرارة الشمس المرسلات أشعتها إلينا من جهة السماء فتشتر وتبعد الأجزاء المائية من أعماق الأرض ومن البحار والأنهار إلى جو الهواء فينعقد سحاباً فيمطر كان الانزال من السحاب حقيقة ومن السماء مجازاً باعتبار السببية والله مسبب الأسباب ، وقد ذكر هذا التأويل الشيخ اسماعيل حقي في تفسير سورة « النبا » وعلى كل

فقد اندفعت الشبهة ، ووافقت النصوص الشرعية حكم العقل والله تعالى أعلم

وإن قيل : ما حقيقة الرعد ، والبرق ، والصاعقة ؟ فإن الفلاسفة المتأخرين يقولون : إنها ناشئة عن عمل القوة الكهربائية المتكونة في السحاب وتقاموا على ذلك في كتبهم الدلائل من نوع قياس الغائب على الشاهد ، قلنا : اختلف علماء الإسلام المتقدمون في ذلك ، فقال بعضهم : الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث شاء الله تعالى ، والصوت المسموع صوته ويسمى رعدا أيضا ، ويده مخاريق من نار ، يسوق بها السحاب ، والبرق ما ينقدح من تلك المخاريق ، وإذا اشتد غضبه طارت من فيه نار هي الصاعقة ، واستند أصحاب هذا القول الى حديث آحادي روى في ذلك ، وقال بعضهم : ان الرعد خالق من خلق الله تعالى ليس بملك ، وروى هذا عن الحسن ، أي البصري ، وقال بعضهم : ان الرعد ، والبرق ، والصاعقة تتولد من اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها فينشأ هذا الصوت المسمى رعدا ، وينقدح ذلك اللمع المسمى برقاً ، والصاعقة قصفة رعد هائلة معها نار لا تأتي على شيء إلا أتت عليه بالهلاك ، وعبر البيضاوي عن هذا القول بأنه المشهور ولعل مراده المشهور بين علماء المعقول ، إذا تقرر هذا فاعلم أن اختلاف العلماء في هذه الأشياء دليل على أن الحديث الذي استند اليه أصحاب القول الأول لم يصح عند الفريق الثاني الذين خالفوه ، وإلا لما

قالوا بغير مضمونه فيكون اعتقاد مضمون القول الأول ليس واجبا علينا كبقية العقائد الاسلامية ، إذ ليس النص الذي استند اليه من النصوص الثابت ورودها عن الرسول قطعا : كالتواتر ، والمشهور ، لكن الصواب عدم مخالفة الحديث وان كل آحاديا ، وإذا لم يقد دليل قاطع على ثبوت خلافه فجميع ما ذكر فيه هو من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ، فما المانع أن يكون الله تعالى عظيم القدرة قد خلق ذلك الملك ، ووكله بتدبير أمر السحاب والأمطار وينشأ عنه تلك الحوادث من الصوت العظيم ، والبرق ، والصاعقة وأما إذا ثبت بالدليل العقلي القاطع أن تلك الحوادث الثلاث إنما هي من فعل الكهرباء قلنا حينئذ تأويل نص ذلك الحديث الآحادى ، فنقول : لا مانع أن الله تعالى قد خلق ملكا ووكله فى تدبير شئون الأمطار ، وتلك الحوادث الناشئة عن القوة الكهربائية التي لا بد فيها من حكم باهرة إنما مبدؤها تدبير ذلك الملك وتصرفه فى السحاب فاراد بالحديث افادة أن شئون المطر وتلك الحوادث مرجعها ذاك الملك مع تمثيل وتصوير عظمتة ، فعبء عن الرعد بصوته ، والبرق بلمعان مخاريقه ، والصاعقة بشراقة فقه ، والمراد من جميع ذلك التمثيل والتصوير وهذا الأسلوب مستعمل فى اللغة العربية يفهم أصحابها ما هو المقصود منه ، وورد نظيره فى استعمالات الشرع الشريف ، فما ورد فى كلام أهل اللغة العربية منه قول بعضهم يمدح رجلا :

ان السحابة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج
فانه من المعلوم أن السحابة والمروءة والندى هي معان لا يمكن
أن توضع في قبة مع الممدوح ، وانما المراد تمثيل وتصوير ملازمة
ذلك الممدوح لتلك الصفات الكريمة حتى كأنما ضربت عليها وعليه
قبة ، ومما ورد منه في استعمال الشرع الشريف قوله تعالى : « والأرض
جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فانه قد يؤول
بأن المراد منه تمثيل وتصوير عظمة الله تعالى وقدرته وعظمة سلطانه
وإلا فهو سبحانه ليس مشابها للحوادث ، ويستحيل ملاصقته لها
بأن يقبض على الأرض ويأخذ السموات بيمينه سبحانه وبهذا
يتضح التوفيق بين ذلك الحديث الأحادي وبين ما فرض ثبوته
بالدليل القاطع من كلام الفلاسفة المتأخرين ، والله تعالى أعلم

فان قيل قد ورد في القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى جعل
الكواكب زينة السماء الدنيا ، وجعلها حفظا من الشياطين ، ورجوما لهم ؛
لأنهم يصعدون الى قرب السماء لاستراق السمع من الملائكة ، ومن
المعلوم أن الفلكيين يقولون بكبر كثير من الكواكب حتى ان منها ما هو
أكبر من الأرض بمرات ، وورد أيضا في بعض الآثار ما يدل على
كبر البعض منها ولو رجعت الشياطين بهذه الكواكب الكبيرة
لسقطت على الأرض وأضررتها ، وإن كان يظهر النقص في الكواكب
المرئية ١١ على طول الزمان ، قلنا . ليس المراد من النص القرآني أن

نفس الكواكب الكبيرة تكون رجوما حتى يلزم ذلك بل المراد كما قال الامام الرازي في تفسير سورة « الصافات » وتفسير سورة « الملك » أن تنفصل شعل من الكواكب ترجم بها الشياطين وتسمى الشهب التي نراها منقضة من جهة السماء ، أو أن الكواكب قسمان قسم منها الكبير الثابت الذي لا يتغير ولا ينقض ، وقسم منها الصغير الذي ينقض ويكون رجما للشياطين ، وهي هذه الشهب التي نراها منقضة

فان قيل : ان الفلكيين المتأخرين يقولون : ان الشهب أجسام صغيرة سابحة في الفضاء تنجذب أحيانا الى الأرض عند قربها منها وتنقض ملتهبة من سرعة الحركة ، قلنا : لم يقل النص القرآني ان كل شهاب فهو رجم للشياطين بل مفاده أن الكواكب رجوم للشياطين في الجملة فما المانع أن الله تعالى خلق تلك الأجسام وأقامها في الفضاء وهي من جملة الكواكب ولكنها صغيرة ، فتارة تنقض إلى جهة الأرض بسبب جذب الأرض لها عند قربها منها ، وتارة يرسلها الله شهابا على الشياطين المسترقين لاسمع ، فقد ظهر مصداق النص القرآني أن الله تعالى جعل النجوم زينة ورجوما فالزينة بكبارها والرجوم ببعض صغارها ، فالفلكيون ماعدها غير ما دللتهم عليه أرواحهم ، ونحن قد علمنا أن من الكواكب ما يكون رجوما للشياطين وهو بعض تلك الاجسام الصغيرة ، وثبت عندنا ذلك باخبار القرآن الشريف

الصادق ولا إشكال في ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم
فان قيل : اذا ثبت ما يقوله المليكيون من أن الأرض كرة قائمة
في الفضاء ليست مركوزة على شيء ، فما يقولون في الاثر المروى عن
بعض الصحابة أنه سئل سيدنا عيسى عليه السلام عن الأرض فقال :
أها على قرن ثور والثور على صخرة والصخرة على ظهر الحوت
والحوت في بحر والبحر على الريح وتحت الريح ظلمة ، قلنا : هذا
الاثر ولو فرض نقله حديثا ليس آية قرآنية ولا حديثا متواترا
ولامشهورا حتى يجب الايمان به كبقية العقائد الاسلامية لعدم اليقين
بثبوته ، وعلى فرض ثبوته عن سيدنا عيسى عليه السلام فيمكن
تأويله بكونه من ضرب الأمثال ، وكثيرا ما ترد الرموز وضرب
الامثال في كلام سيدنا عيسى عليه السلام كما يعلم ذلك من تتبع المنقول
عنه ، والله أعلم

الفصل الرابع

في رد شبه شتى عن نصوص شرعية

اعلم أنه قد ورد في القرآن الشريف ما يفيد أن الله تعالى خلق
آدم أبا البشر عليه السلام ابتداء من طين بدون أب ولا أم ، وورد
فيه سبحانه خالق زوجته حواء منه ، وقال بعض المفسرين : ان المعنى
أنه خالقها من جنسه ونوعه كما قال تعالى : « وخلق لكم من أنفسكم أزواجا »

وقال أكثر المفسرين : انه خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى واستندوا في ذلك الى حديث آحادى ورد في ذلك ، وورد في القرآن أيضا أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى عليه السلام من السيدة مريم رضى الله تعالى عنها من دون أب ، قال علماء الاسلام : ان في خلق هؤلاء المذكورين بهذه الطرق مع خلق بقية البشر على الطريق المعتاد اشارة من الحق تعالى للعباد على تمام قدرته بخلق الانسان على أى كيفية أراد ، فخلق آدم بدون ذكر وأنثى ، وخلق حواء من ذكر ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى ، وخلق بقية البشر ذكورا وإناثا من ذكر وأنثى ، ومن يؤمن بوجود الله تعالى وبكمال قدرته ويتصور ما أبدعه من الحيوانات والنباتات من التراب لا يصعب عليه الايمان بخلق آدم ، وحواء ، وعيسى بالكيفات المذكورة ، إذ لا دليل على استحالة شىء من ذلك ، وقد أخبر به الصادق ، وما يقوله بعض المتأخرين من الفلاسفة في حق الانسان وبقية الحيوانات : من أنها تولدت من عناصر الارض ثم اشتق بعضها من بعض بتفاصيل مستطيلة ، ويسمون قولهم هذا مذهب النشوء فهو قول مبني على الظنون والاهام ، لا مستند له في باب اليقين ، كما أوضحت ذلك في « الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية » فلينظر هناك ، فلا داعى لنا الى تأويل النص الوارد في خلق آدم من تراب كما يعام من القاعدة التي تقدم تقريرها من أنه لا يسوغ لنا تأويل النص الشرعى الا اذا قام الدليل القاطع على ما يناقض المعنى

المتبادر منه ، وعلى فرض قيام الدليل القاطع على مايقوله هؤلاء
الفلاسفة فيمكن تأويل هذا النص في خلق آدم وحواء بتأويلات
مناسبة كما بينته في « الرسالة الحميدية » أيضا فارجع اليه : وأما من
لم يكن مؤمنا بالله تعالى ، وعظيم قدرته فهذا الصواب في حقه كما تقدم
صرارا اقامة الشواهد له حتى يصير مؤمنا بالله تعالى ، وبعد ذلك يتضح
له صدق تلك النصوص ، والله أعلم

كذلك قد ورد في القرآن الشريف في قصة أهل الكهف مايفيد
أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين ، وجاء شرح قصتهم
في الاحاديث الشريفة أنهم أشخاص مؤمنون على دين سيدنا عيسى
الصحيح ، خافوا من إجبار ملئهم على الكفر وعبادة الاوثان
فاختبؤا في ذلك الكهف ، وأرسل الله عليهم النوم وحفظ حياتهم
تلك المدة ، ثم بعد يقظتهم عادوا فناموا وسد عليهم القوم الذين اطلعوا
عليهم باب الكهف ، فهذا الحال من الجائزات العقلية اذ لا مانع من أن
الله تعالى يحفظ حياة النائم سنين عديدة ، فان الغذاء ما هو الاسبب
عادي في حفظ الحياة والله تعالى قادر على حفظها بدون الغذاء ، وقد
يوجد في الحيوانات لاسيما من نوع الحيات ماينام تحت التراب مدة
الشتاء لا يأكل ولا يشرب ويحفظ الله تعالى عليه حياته تلك المدة ،
، كما أن بعض الباحثين عن طبقات الارض : إن بعض الحيوانات
التي قد تنم تحت التراب ألوانا من السنين وهي محفوظة الحياة

واستشهد على ذلك ببعض ما اكتشفوه ، ولا يلزم من وجود أهل الكهف الآن أن يطلع عليهم الباحثون عن الآثار القديمة ، فكم من البقاع لم يصلوا إليها ولم تطأها أقدامهم ولم يرد حديث صحيح بتعيين مكانهم ، والله تعالى اعلم

وكذلك قد ورد في نصوص القرآن الشريف ، وفي أحاديث كثيرة ما يدل على أن الرؤيا المنامية قد تدل على أمور تحدث في اليقظة . أما صراحة ، وأما بنوع إشارة تحتاج للتفسير ، قال العلماء ان الرؤيا المنامية هي تصورات فكرية تحدث في ذهن النائم على أنواع ، منها ماسبيه بخبرات الطعام ، ومنها ماسبيه تفكر الانسان في أشياء حالة اليقظة فيراها أو يرى ما يناسبها في حالة النوم ، ومنها ماسبيه من الشيطان لأجل غرور الناس ، أو ادخال الحزن عليه ، أو نحو ذلك من مقاصده الخبيثة ، ومنها ما يكون من جانب الله تعالى تبشيرا للعباد أو تحذيرا ، أو غير ذلك : إما صراحة ، وإما إشارة ، وهذا القسم بنوعيه هو الذى ورد في الشريعة أنه جزء من الوحي ، وكل هذه الاقسام جائزة لا تستلزم محالا عقليا ، وللقسم الاخير شواهد كثيرة تنقل في التواريخ القديمة الى هذا الزمان ، ونظن انه قل أن يخلو شخص من حصول شيء له من ذلك في مدة عمره ، ولكن يوجد في فلاسفة هذا العصر من ينكر هذا النوع الاخير من الرؤيا وينكر دلائلها على شيء في اليقظة بدون دليل منه على استحالة أو عدم وجوده ، وإذا

يقل اليه بعض الشواهد التي حدثت لبعض الناس من هذا النوع
يؤول ذلك الشاهد بتأويلات واهية سخيفة ، فالذى نعتقده أن دلالة
هذا النوع من الرؤيا على أمور تحدث في اليقظة هو أمر جائز عقلا
وقد أخبرت بوقوعه نصوص الشريعة فنؤمن به ونصدق

كذلك قد ورد في بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية
ما يفيد أن للسحر حقيقة وآثارا في الخارج ، قال العلماء : ان من
السحر ما يوجد له حقيقة وآثار في الخارج مثل قلب بعض صور
الحيوان إلى صورة أخرى ، وقتل الحيوان والاضرار ببعض الاجساد
وذلك ناشئ إما عن خاصية في نفس الساحر خصه الله تعالى بها
أو عن استعمال الساحر بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ما يحدث
من آثار ذلك في الخارج فهو بمحض خلق الله تعالى ، وتلك الخاصية
في الساحر واستعماله بعض الرقى والعزائم ما هو إلا من الأسباب
العادية التي جرت عادة الله تعالى في إحداث مسبباتها عندها ، وليس
الساحر خالقا لشيء من تلك الآثار ، ومن السحر ما لا أثر له
في الخارج حقيقة وإنما يحدث عنه في نظر الرائي وفكره صور وهمية
متخيلة يظن الرائي أن لها وجودا في الخارج والحال ليس كذلك ،
وتلك الصور الخيالية تحدث إما بواسطة أعمال كيمائية ، أو باستعمال
النواميس الطبيعية كنواميس النور ، فيرى الانسان أثرا في الخارج

لا حقيقة له فيه واما بوسائل أخرى كسرعة العمل وغير ذلك ، قال أهل السنة والجماعة : لا مانع أن الله تعالى يوجد في بعض النفوس خاصة التأثير بالاجسام وقلب صورها واحداث الاضرار ونحو ذلك ، أو يحدث ذلك عند استعمال بعض الرقى والعزائم ، ولكن كل ذلك بخلق الله تعالى وجعله تلك الخاصة والرقى والعزائم اسبابا عادية تحدث عندها تلك الآثار كما لا مانع من خلق الله تعالى تلك الصور الخيالية المتوهمة التي لا حقيقة لها في الخارج عند استعمال بعض النواميس التي تنشأ تلك الصور عنها ، وإن قيل : لو جوزنا وقوع السحر يلزم اشتباه الساحر بالرسول الذي يأتي بالمعجزة ، قلنا : إن الرسول يدعى الرسالة من عند الله تعالى ، ويصدق الله تعالى باظهار المعجزة على يديه ، والساحر لا يدعى الرسالة وإن أراد ادعاءها فمن حكمة الله تعالى أن لا يظهر الامر الخارق للعادة على يديه ، أو أنه إن ادعى الرسالة كان من حكمة الله تعالى أن يطلع بعض من يدعى بينهم على حقيقة أعماله السحرية فلا يلتبس عليهم الحال بالمعجزة كما قال الرازي في حكمة تعلم الملوك الناس السحر ، وقد نقلناه فيما تقدم ، فهذا يكون الفارق بين المعجزة والسحر ، فإن قيل : إن الفلاسفة المتأخرين أنكروا وجود السحر من النوع الأول ، وهو أن يكون على يد الساحر ظهور بعض الحقائق من قلب الصور والاضرار بالغير بواسطة خاصية بنفسه أو استعمال بعض الرقى

والعزائم ، واحتجوا على ذلك بأنه لا يظهر في العقل ارتباط بين تلك
الوسائط وظهور تلك الحقائق في الخارج ، وبأن في جميع ما اكتشفناه
من حقيقة حال السحرة في هذا الزمان أن جميع ما يظهر على أيديهم
هي صور وخيالات لا حقيقة لها في الخارج ، وهي تحدث على
أيديهم بواسطة استعمال بعض النواميس ، أو بواسطة خفة اليد وسرعة
العمل ، وكثير من السحرة من أقر بأن ما يظهره لالعيان ما هو
إلا صورة خيالية لا حقيقة لها ، قلنا انا معشر أهل السنة نقول
ان عدم ظهور ارتباط بين تلك الوسائط وهي خاصية النفس واستعمال
الرقى والعزائم وبين ظهور تلك الحقائق في الخارج لا يلزم منه عدم
وجوده في نفس الأمر ، فربما يكون ذلك الارتباط موجودا وهم
لم يطلعوا عليه لا سيما وأمر السحر شيء خفي ووجود السحرة قليل
وفي أزمنة متباعدة ، وهذا المغناطيس لاشك أنه يجذب الحديد ومع
ذلك لم يطلع هؤلاء القوم على حقيقة السبب الذي به توجد هذه
الخاصية ولم كان يجذب الحديد دون غيره ؟ غاية ما يقولونه : ان
تركيب أجزاء المغناطيس يقتضي ذلك ، وهذا ادعاء لسبب بمحل غير
واضح ولا مقنع للعقل فيه ، على أننا نقول : ان وجود تلك الحقائق
على يد الساحر بمحض خلق الله تعالى وهذا لا مانع منه سواء كان
هناك سبب موجب أو لم يكن ، وأما قولهم : اننا في جميع ما اكتشفناه
من حقيقة حال السحرة في هذا الزمان قد اتضح لدينا أن جميع

ما يظهر على أيديهم منه هي صور و خيالات لا حقيقة لها في الخارج
فنقول أولا . لا نسلم أنهم أطلعوا على أحوال كل ساحر في هذا
الزمان ، وثانيا لا مانع أن يكون النوع الأول من السحر قد فقد
من العالم كما فقدت عدة علوم وبقي النوع الثاني فقط الذي اطلعوا
عليه ، ونحن لا نقول بوجود النوع الأول دائما حتى في هذا الزمان
بل في نفس الأمر وهو عزز الوجود ولا يوجد صاحبه إلا
في أزمته متطاولة ، فالملخص أننا معشر أهل السنة نقول بوجود
السحر لا سيما في الأزمنة الغابرة كما جاءت بذلك النصوص وبأن
آثاره بمحض خلق الله تعالى وإن لم نطامع على وجود شيء منه في هذا
الزمان ، والله أعلم

كذلك قد ورد في بعض الأحاديث الأحادية أن بعض الأعين
تأثيرا في سقم بعض الأجسام واضرارها ، وحمل عليه بعض المفسرين
تفسير بعض الآيات ، وقد أنكر هذا بعض الفلاسفة المتأخرين
والمتقدمين ، قالوا : كيف يعقل أن العين تعمل من بعد وتؤثر في الأجسام
بالأسقام والاضرار ؟ ونحن نقول : أن ذلك من الجائزات العقلية
وحقيقة ذلك التأثير بحلق الله تعالى ، والعين سبب عادي . وإذا أريد
بيان ذلك التأثير عقلا ، فنقول : أن الناس مختلفون في خواصهم كما
يكون الاختلاف بين أصناف الحيوانات فما المانع من أن يكون في الناس
ذو طبيعة في نفسه ذات سم وضرر ، فإذا نظر نسيئا بعينه وأعجبه وتوجه

بنفسه اليه انفصل من عينه في الهواء مادة سامة اذا وصلت الى المرئى
أضرت به ، وأى مانع من انفصال مادة من العين عند الانفعالات
النفسية كما تنفصل منها الدموع عند ذلك ، وقد قال بعض المتكلمين
على خواص الحيوانات ان من الأفاعى ما ينظر إلى الانسان فيموت
بنظره ، وما يصوت فيموت السامع بصوته ، واذا صح هذا فذلك
الأفعى لم يكن قتلها من بعد إلا بواسطة سم ينفصل عنها ويصل
إلى الانسان ، ومن نظر الى المغناطيس وتأثيره بالحديد من بعد
لا يستغرب تأثير العين فى الأجسام من بعد ، وهذا الذى ذكره من
تأثير العين فى سقم الأجسام واضرارها هو الذى ثبت فى الاحاديث ،
وأما ما ينقل من أن العين تهدم المباني العظيمة وأشق الجبال الكبيرة
وأمثال ذلك فهو شئ منقول فى القصص والأخبار الشائمة بين
الناس ، وإذا لم يصح فى نقول الشريعة الصحيحة فلا يعتمد عليه ،
والمخلص أنا نقول بجواز تأثير العين فى الاجسام بالاسقام والأضرار
ووجود ذلك بخلق الله تعالى لورود النص بذلك ولا مانع منه عقلا ،
ولا يستلزم محالا ، والله تعالى أعلم

وكذلك قد ورد النص فى بعض الاحاديث الأحادية أن
الطاعون من وخز الجن ، والذى يقوله الأطباء : ان مرض الطاعون
من فساد الدم الناشئ من فساد الهواء فنقول : اذا تحقق ما يقوله
الأطباء يمكن أن يقال : ان السبب الاصلى فى الطاعون هو تسلط

الله تعالى الجن على بنى آدم بافساد هوائهم ودمهم فيتولد عن ذلك تلك الغدد الطاعونية ، فالنص الشرعى أخبر بالسبب الاصلى وكفى عنه بوخز الجن ، والاطباء اطلعوا على السبب الاخير فقالوا بما اطلعوا عليه ولا اشكال فى ذلك ، والله أعلم

وان قيل قد جاء فى حديث آحادى أنه عليه السلام قال : « لا يوردن ذو عاهة على مصحح » وقال : « فر من المجذوم فرارك من الاسد » وجاء فى حديث آخر أنه عليه السلام قال : « لا عدوى » فما التوفيق بينهما ؟ قلنا من المعلوم أن اعتقاد أهل الاسلام أنه لا تأثير لشيء بطبعه بل كل أثر فهو بخلق الله تعالى ، وإنما قد أوجد الله أسبابا عادية للآثار والله قادر على تخلف تلك الآثار عن أسبابها ، وأن العمر محتوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يصيب الانسان الا ما قدر عليه ، فلا يجوز للانسان أن يعتقد أن المرض الفلانى يؤثر بطبعه ويمدى غير صاحبه ، وأن الانسان قد يمدى بالمرض ويموت قبل أجله الذى قدره الله له ، اذا ققرر ذلك فنقول : يمكن — والله أعلم — بمراد رسوله أن المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى » أنه لا يجوز اعتقاد العدوى بتأثير الأمراض بطبيعتها وامانة الانسان قبل أجله ، ولكن قد توجد فى بعض الأمراض مثل الجذام والجدرى والسل وأمثال ذلك رائحة كريهة ومادة سامة تنفصل من صاحبها ربما تكون سببا عاديا لحدوث المرض فيمن يخالطه ويقاربه فيمكن حيائذ — والله أعلم — أن يكون

هذا هو المعنى الذى أشار اليه صلى الله عليه وسلم بقوله « لا يوردن ذوعاهة على مصحح » وقوله : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » فكما أن شدة البرد وشدة الحرارة والتخمة وأمثال ذلك تكون سببا للمرض كذلك تلك الرائحة الخبيثة والمادة السامة التى تنفصل من المريض قد تكون سببا عاديا لمرض الصحيح المخالط له ، فاذا تجنب المرء أصحاب تلك الأمراض تحاشيا عن الأسباب العادية مع اعتقاده أن تلك الأمراض ليست مؤثرة بطبعها ، وأن تحاشيه لا يكون مانعا لقدر الله تعالى ، ولا مطيلا له عمرا فلا مانع من ذلك التحاشي مع مراعاة تلك الشروط لصحة الاعتقاد ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطاعون : « اذا كان فى البلد الذى أنتم فيه فلا تخرجوا منه » وقال أيضا : « إذا كان فى بلد فلا تدخلوه » قال بعض العلماء يريد بقوله : « لا تخرجوا منه » اذا كان فيه كأنكم تظنون أن القرار من قدر الله ينجيكم ، ويريد بقوله : « واذا كان فى بلد فلا تدخلوه » أن مقامكم فى البلد الذى لا طاعون فيه أسكن لأنفسكم ، وأطيب لعيشكم ، ومع ذلك لا يجوز للإنسان أن يخالط أصحاب الأمراض اتكالا على الله وتوقفا به تعالى : لأن حصول الضرر بمخالطتهم غير مقطوع به ، وقد ورد « أنه عليه السلام » والسلام أكل مع مجذوم فى اناء واحد وقال « والله » فبالأمل فى هذا المقام يظهر التوفيق بين الأحاديث الشرعية ، وبين اعتقاد المسلمين فى مسألة العدوى ، والله تعالى أعلم

وان قيل : قد ورد في حديث آحادى ما مفاده أن الله تعالى قد جعل ملكا موكلا بعروق الارض فاذا أراد الله زلزلة جهة من الأرض أمر ذلك الملك فحرك عرق تلك الجهة فتحدث فيها الزلزلة ، والفلاسفة يقولون : ان الزلزلة تحدث من احتباس أبخرة أو مياه في جوف الأرض وتنضغط بالحرارة وليس لها منفذ الى ظاهر الأرض فيحدث عنها تلك الحركة العنيفة المسماة بالزلزلة ، قلنا الذى ورد في الحديث لا مانع منه عقلا ، ولكن اذا ثبت بالدليل القاطع ما يقوله الفلاسفة يمكن تأويل ذلك الحديث بان الله تعالى جعل ذلك الملك موكلا بتدبير الأبخرة والمياه التى في جوف الأرض ، وقد كنى في الحديث عن ذلك بانه موكل بعروق الارض ، فاذا أراد الله تعالى زلزلة جهة أمر ذلك الملك فسلط الأبخرة والمياه وضغطها بالحرارة في جوف تلك الجهة فتحصل الزلزلة ، فعبّر عن ذلك في الحديث بأنه يحرك عرق تلك الجهة ، ولا مانع من الكناية لصعوبة الفهم على العامة أن الأبخرة تحرك الارض العظيمة والله تعالى أعلم

إن قيل : قد توجد آثار في بعض الكتب في كبر أجسام المتقدمين تحتوى على مبالغات يستبعدها العقل ، وهي وإن لم تكن مستحيلة عقلا لكن قد اكتشف الباحثون عن الآثار الأرضية على أجسام محنطة من تاريخ أربعة آلاف سنة فوجدوها مثل أجسام أهل هذا الزمان ، فما تقولون في ذلك ؟ قلنا ان الذى ثبت في هذا الباب أن الله

تعالى ذكر من قبلنا ، فقال : « كانوا أشد منكم قوة » وقال عن طالوت :
« وزاده بسطة في العلم والجسم » وقال في تقرير بعض المتقدمين
« واذا بطشتم بطشتم جبارين » وكل ذلك لإشكال فيه ولا يعارضه
اكتشاف ولا غيره : وأما ما شاع من قصة عوج بن عنق والمبالغة
في كبر جسمه ، وكذلك ما ينقل ان آدم عليه السلام كان رأسه يصل
السحاب والسماء يحاكها فاعتراه الصلع من ذلك ، فقد قال الامام ابن
قتيبة في شرح الاحاديث المشككة ان هذا شيء لم يأت به كتاب ،
ولا ثقة ، وليس له اسناد ، وقال الامام ابن فورك في شرح الاحاديث
المتشابهة ، عن الروايات في طول آدم وقامته انها مما لا يوثق به ؛ إذ
ليس في ذلك خبر صحيح ، ولم يثبت أنه قد كانت خلقة آدم على خلاف
هذه الخلقة عن الحد الزائد الذي يخرج عن المعلوم من متعارف خلق
البشر ، نقول : لكن يعارض كلام ابن فورك ما جاء في حديث البخاري
الصحيح من أن طول آدم كان ستين ذراعا وانه لم يزل الخلق ينقص
حتى الآن ، فالتحقيق أنه على فرض ثبوت أحاديث في كبر أجسام
المتقدمين فيمكن جعلها على أنهم كانوا أكبر أجساما من أهل هذه
الازمنة بما هو خال عن المبالغة كالستين ذراعا في خلق آدم ، وأنه من
المحمول أن الاجسام أخذت تصغر في زمنة متطاولة لأسباب عادية
حتى بلغت مقدار هذه الاجسام المعروفة الآن ، ولذا اكتشفه
الباحثون عن الآثار الأرضية ان أجسامهم بعد أن وصلت

الاجسام فى الصغر الى هذا القدر ، وما تعنيه الاحاديث التى فرض
صحتها هو فى اجسام اهل ازمئة قديمة جداً ، ومثل هذا يقال فى طول
اعمار المتقدمين ، فانه قد ورد فى القرآن أن نوحا لبث فى قومه ألف
سنة إلا خمسين عاماً ، وورد فى الأحاديث أن آدم عليه السلام عاش
ألف سنة ، وهذا أمر ممكن عقلاً لا استحالة فيه ، ومن الجائز أن
اعمار البشر كانت تطول ثم أخذت تتناقص كما نافست أجسامهم
حتى بلغت هذا الحد المعلوم ، والله تعالى أعلم

الخاتمة

نسأل الله حسن الخاتمة

إعلم أنه يجب على المسلمين سُرْعاً نصب إمام يقوم بإقامة الحدود
وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش ، وأخذ الصدقات ، وقهر المتغلبة ،
والمتلصصة ، وقطاع الطريق ، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء
لهم ، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد ، وقبول الشهادات القائمة على
الحقوق ، وإقامة الجمع ، والاعياد ، ولا يتم جميع ذلك بين المسلمين
إلا بإمام يرجعون إليه فى أمورهم : يدرأ المفاسد ، ويحفظ المصالح ،
ويمنع مما تسارع إليه الطباع ، وتتنازع عليه الأَطباع ، يعول الناس
عليه ، ويصدرون عن آية على تمتضى أمره ونهيه ، وقد أجمعت
الصحابة رضى الله تعالى عنهم على نصب الإمام بعد وفاته عليه الصلاة

والسلام ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : لا بد لهذا الامر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، فقالوا من كل جانب صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى إمام ، ويجب طاعة الامام على جميع الرعايا ظاهرا وباطنا فيما لا يخالف الشرع الشريف لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم العلماء ، والامراء ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « من أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصا أميرى فقد عصانى » وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ، وانما الامام جنة يقاتل من ورائه ، ويتقى به »

ومما ينبغى نصرة الامام على أعداء الدين والمفسدين ومحبة ونصحه والدعاء له بالصالح والتوفيق ، الرشاد ، والنصر والسداد فان فى صلاحه صلاح الامة ، وقد قال بعض السلف ما معناه : لو أعطيت من الله دعوة سالحة لجعلتها فى الخبئة

نسألت لاهم ونتوسل اليك بعظمة ذات العلية ، وصفاتك السمية ، وبأسمائك السنية ، وبروحانية سيدنا محمد خير البرية ، أن تحفظ وتنصر وتؤيد وتوفق حضرة مولانا محمد الهادي ، وخليفة رسول رب العالمين ، مولانا "سلطان الأعظم" ، والحاوي "سلطان سلاطين العرب والعجم" ، وخال الله على صنوف "سلطان" ابن السلطان ،

السلطان الغازى «عبد الحميد» خان، ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان،
ابن السلطان الغازى محمود خان : أيد الله خلافته إلى آخر الدوران ، فهو
الحامى حوزة الملاك والدين ، والناهض بهذه الأئمة إلى أسمى شرف
مكن ، وإن من حسنات عصره السعيد ، جمع هذا الكتاب المفيد
المسمى «بالحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية» إذ هو
طبق رضائه العالى ، واثر إحسانه المتوالى ، جعله الله تعالى خالصا
لوجهه الكريم ، ووسيلة للفوز بجنات النعيم ، اللهم آمين ، وصلى الله
تعالى وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ،
والحمد لله رب العالمين ، آمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء
 والمرسلين ، وعلى آله ، وأصحابه وسائر الصالحين
«أما بعد» فإن كتاب «الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد
الإسلامية» من أبدع ما أخرج للناس فى فن الرحيد . ولا عجب فهو
من آثار ذلك الإمام الجليل . والعالم الشهير . الإمام السيد حسين
أفندى الجسر الطراباسى طيب الله ثراه

بيد أنه قد لعبت به أيدي التحريف والتصحيف ، وسرقة
 حضرة الهمام الحاج مصطفى أفندي محمد بنشره في حلة تتناسب مع نفاسة
 الكتاب وجلالة مؤلفه ، وعهد إلينا بمعارضته بأصوله وتصحيحه ،
 فوفق الله تعالى لعدة نسخ مختلفة الطبع وزمانه ، ومنها نسخة نشرت
 في عهد المؤلف ، فهدبته جهد الطاقة ، ولم كنت حريصا على خلوه
 من الغلط ، ولكن فرط مني أغلوطة واحدة نرشدك إلى صوابها
 فيما يلي ، إسداء للنصيحة ، وأداء للأمانة ، والعصمة لله وحده
 وها هو الكتاب يتهدى إليك اقترابا ، ويهدي من معانيه
 كراعب أترابا ، فنزفه للمسلمين ، وجماعة الموحدين ، في مشارق
 الأرض ومغاربها ولا عطر بمدعروس

رضوانه محمد

٩ صفر سنة ١٣٥١ |
 ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ |

« تصويب »

ص	سطر	
١٢٨	١٣	« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان
		وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »

فهرست « الحصون الحميدية »

للسيد حسين افندى الجسر الطرابلسى

- ٢ فاتحة الكتاب ، سبب تأليفه
- ٧ } المقدمة وفيها أربعة مباحث : —
المبحث الأول فى تعريف علم التوحيد ، وثمرته ، وفضله ،
وافترض تعلمه
- ٨ المبحث الثانى فى حقيقة الايمان ، والاسلام
- ٩ المبحث الثالث فى بيان ما اعتبره الشرع منافيا للايمان
- ١٠ المبحث الرابع فى أحكام الوجوب ، والاستحالة ، والجواز
- الباب الأول فى بيان الايمان بالله تعالى ، وبيان اعتقاد أهل
السنة ، وفيه فصول : — ١٤
- الفصل الاول فى تعريف الايمان بالله تعالى
- ١٥ الفصل الثانى فى بيان الصفات التى يجب لله تعالى تفصيلا ،
وأضدادها ، ودلائل ذلك
- ٣٣ الفصل الثالث فى بيان الصفات التى تتعلق به الى لا تتعلق ،
ومعنى ذلك التعلق
- ٣٧ الفصل الرابع فى بيان أنه يجب أن يعقد بجميع صفاته تعالى ،
واسمائته ، وبيان أن أسماءه نوبتينيه

١٥٧ الباب الثالث في رد شبه عن نصوص شرعية تعتمد في الاعتقاد ،
أو التوفيق بينها وبين ما يثبت بالدليل العقلي
مناقضا لظواهرها ، وفيه فصول : —

١٦٣ الفصل الاول في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة
في السماويات ، والارضيات ، أو التوفيق بينها
وبين ما قام عليه الدليل العقلي مناقضا لظواهرها
١٧٦ الفصل الثاني في رد الشبه عن النصوص الواردة في شؤون
الملائكة ، والجن

١٨٣ الفصل الثالث في رد الشبه عن النصوص الشرعية الواردة
في الامور الجوية : كالطير ونحوه

١٨٩ الفصل الرابع في رد شبه شتى عن نصوص شرعية : كرد
شبهة خلق آدم ، وحواء ، وعيسى صلوات الله عليهم ،
وشبهة لبث أهل الكهف في كهفهم ثمانمائة وتسع سنين ،
وشبهة دلالة الرؤية المنامية على أمور تحدث في اليقظة ،
وغير ذلك

٢٠٢ خاتمة في وجوب نصب خليفة للقيام بأمر الاسلام والمسلمين

٣٨ الفصل الخامس في كيفية اعتقاد أهل السنة فيما ورد في نصوص

الشريعة الغراء مما يؤهم التشبيه والمثالة

للحوادث ، وطريق تأويله عند الحاجة

٤٣ الفصل السادس في بيان ما يجوز في حق الله تعالى ، وبيان طرف

من ذلك

الباب الثاني في بيان الايمان بالرسول ، والأنبياء ، والملائكة ،

والكتب ، واليوم الآخر ، وما يتبع ذلك ، وفيه

فصول : —

٤٨ الفصل الاول في بيان الايمان بالرسول ، والأنبياء صلوات

الله وسلامه عليهم ، وما يجب لهم ، وما يستحيل

عليهم ، وما يجوز في حقهم

٥٣ الفصل الثاني في شرح معجزات الرسول عليهم الصلاة والسلام ،

وبيان طريق وقوعها ، وإقامة الحجة بها

٧٣ الفصل الثالث في بيان معجزات نبينا محمد صلوات الله عليه ، وطرف

من الطرق التي كانت برهاناً على صدق دعواه

١٢٧ الفصل الرابع في بيان الايمان بالملائكة ، والايمان بالكتب

المنزلة على الرسول ، والقضاء والقدر

١٣٤ الفصل الخامس في الايمان باليوم الآخر وما يتضمنه عليه ،

وبالبعث وما يتقدمه : من أحوال الموت ،

والقبر ، وما تبع ذلك

To: www.al-mostafa.com